دموع و شموع

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنانة : نسرين المقداد

❑❑

عبد الجليل مرتاض

دموع و شموع

- روايـــة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2001

المقطع الأول

الخيل، البارود، سباق "القوم"، الناس مستوون حلقات حلقات ينهمون الكسكس بالزبدة والعسل المصفى، لم تكف الملاعق، الكبار يُلقِمون الصغار،.. الغايطة، البندير، العرفاء، الطّلبة، المتسولون، المحسنون، البائعون، المشترون، .. هذه هي حال الوعدة السنوية للولي الصالح "سيدي الجيلالي".

انفض الناس، فانفضضت مع المنفضين، وقفلت رائحاً.. لم يكن لي رفيق واحد، وجدت نفسي هكذا أجوب شعاباً ضيقة وسط أدغال متعانقة لاحظت أن أحدنا غريب عن الآخر، ليست الربوات والجبال أو "السهوب" التي تعودت أن أجوبها، كلما انحدرت من أعلى دَغَل إلا وقد واجهني في أسفله واد جاف مهيل، كان عليّ أن أحتال حتى أتمكن من العبور إلى طرفه المقابل بسلام، لأتسلق دغلاً ثانياً، وبعد جهد جهيد، وصبر عنيد، ألفيت ثيابي ممزقة، وأجزاء من جسدي ملطخة ومخدوشة، فرحة الخلاص من تلك الأدغال الهائلة المهولة أنستني آلام تلك الجروح.

لم أصل بعد إلى الدار، أأكون قد ضللت الطريق؟.. خارت قواي واثاقلت رجلاي، وهجس في صدري شيء ما، وكم كان سروري عظيماً حين قشعت من بعيد شجيرة على ربوة ردّدَ الناس حولها كثيراً من القصص، قصدتها على عجل، استلقيت تحتها، وبعد ثوان فقط تذكرت أن هذه الشجيرات المظلة مقدسة لدى السكان، لو شاهدوني لجلدوني، إنها شجيرة "سيدي الجيلالي" كان إذا مر بهذه البلدة بجواد أبيض مطهم يعلوه سرج لامع أحمر يقيل تحتها قليلاً، ثم ينهض واقفاً متعبداً على رجل واحدة لمدة ليلة كاملة دون أن تمس رجله الثانية التراب، لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً ماراً به إلا رمزاً، وقبل أن تشرق الشمس لا يجدون له أثراً

إلا بعر فرسه الذي كانوا يتسابقون عليه، فيشتمونه بملء أنفاس آنافهم، ويخفون آثاره مثلما تخفى الأسرار والكنوز.

فارقت تلك الشجيرة خوفاً من عقاب "سيدي الجيلالي" وأذى مريديه، لكن ما العمل؟ إني مرهق، لا أقدر على المزيد من رمي خطوة واحدة، ساعتها قلت بيني وبين نفسي "عقاب سيدي الجيلالي" وما يلحقني من أذى من أنصاره أهون علي من أن أتكور منْ على إحدى هذه الربوات التي دلتني على أن الدار لا تزال بعيدة، ولن أصلها قبل إظلام الليل" من كانت حاله مثل حالي يكون قد فهم ماذا أريد.

مسكين! "عاجبو الحال" أنت رجل أبله، مغفل.. لو حافظت على قصبتك التي كنت تشدو بها لخرافك ومعيزك في تلك الغوييات الجرداء لكان لك اليوم جلد آخر، وشأن يختلف عما أنت فيه.

أنت رجل أبله، مغفل،... لو كنت ابن عصرك لامتهنت مهنة أخرى غير مهنة ما أنت فيه، مهنة حروف مزيفة، عذاب قلم أهوج، خيال أحمق..

"عجبك الحال"، خدعوك بقولهم لك: "مبدعاً"، "كاتباً"، "ناقدا"،.. أنت حمار، هم يزدادون ثراء وجاهاً وصعوداً إلى قمم مراكز ومناصب لا يملكون الوسائل البسيطة للحلم بها، وتزداد أنت فقراً ومهانة وصعوداً إلى الأسفل، "عجبك الخبز الحافي"، القناعة، التقشف، البركة "فلقليل".

ورب العزة، إنك لرجل أبله وأكثر من مغفل، .. تعيش في زمن، وسواك يعيشون في زمن آخر، تعبر بلغة جمال لا لغة رجال، لغة أكل عليها الدهر وشرب، وغيرك يعبرون بلغة عصرية جديدة يفهمها ويهلل ويكبر لها الجميع، يُمْنَح أصحابها الجوائز المادية في مختلف المنتديات الدولية، ويُقَلّدون من أجلها الأوسمة من درجة قائد عظيم..

من يتكلم مع من.. إنك رجل أبله،.. لم ينفع في تغيير ذهنيتك المصدوءة اقتصاد سوق، ولا عولمة،.. كأنك لم تقتنع بعد بأنك تبحث عن هويتك بين أقوام لم تخترهم أنت لنفسك، وفي بلد وجدت نفسك هكذا تدب دبيباً تارة كالملاك حراً طليقاً، وطوراً كالعبد مكبلاً، فوق ترابه، وتثب بين كثبانه وربواته، وتجوب أدغاله وأوديته، وتمشي الخيلاء متمتعاً بجمال أزقة مدنه، وتستنشق بملء حواسك نسيم هوائه، في بلد وجدت فيه نفسك تنشد مع المنشدين وتغني مع المغنين "شعب

الجزائر".. "من جبالنا.." "قسما.."

ما أنت فيه لا يشفع أدنى شفاعة لك، أتعرف لماذا؟ لأنك رجل أبله ومغفل، .. ضيعت فرصاً كثيرة في مسيرتك الطويلة من أجل بلهنية هذه الكلمات التعسة التي كنت تخطها بيمينك، وها أنت ذا ترسمها بيسارك..، لن تكون لك يد ثالثة.. تكتب خزعبلات تسميها "مبادئ".

إنك لست أبله فقط، أكثر من ذلك، لا دواء لك، ألم تعرف لماذا؟ لأنك أناني، توظفنا كإله يقلم أظافره في هيبة وصمت وكأن الأمر لا يعنيه من قريب ولا من بعيد، تحركنا كما يحرك طفل صغير دماه، تسند إلى هذا دور عاشق متيم، وإلى هذه وظيفة عاشقة لوجد مستحيل، وإلى ذاك عبء دور مجرم محترف يقتل نفساً قد تكون بريئة، فيبتم صبية زغب الحواصل، ويعرض شرف عائلتهم الوحيدة لشهوات الجشعين،.. قد تجعل الواحد من عالمنا الذي لا يقل زيفاً عن عالمكم بطلاً وهو عند عامتنا وخاصتنا شخص حقير دنيء، والآخر سفاكاً بطاشاً وهو مسالم إذا رأى نملة أو حشرة سلك مسلكاً ثانياً، والواحدة من نسائنا وبناتنا أجمل فتاة، وهي آخر مخلوقة في عالمنا يفكر فيها أو يميل إليها مخلوق.

ألا تحب أن تتركنا لنعيش في أمن وسلام؟ لكم عالمكم، ولنا عالمنا، دنياكم دنيا متاعب واغتيالات وأضغان وصراعات، .. ودنيانا دنيا بر وسلم ومحبة وسماحات.. إن كان عالمنا طبيعياً في زيفه، فعالمكم يصطنع الزيف ويتكلفه، إنكم بلداء لا تستطيعون أن تقشعوا وتتبصروا جلية زيف عالمنا،.. أقدمتم منذ آلاف السنين على إضفاء مسحات من الوهم عليه، وسميتم ذلك بلاغة، مثلتم بنا أسوأ تمثيل، ألصقتم بنا أبشع الصفات إرضاء لأهوائكم، وفبركة لفرجة تلو فرجة ترفيهاً على أنفسكم، فقلبتم عالمنا الهادئ الآمن إلى ما يضاهي الحقيقة، وعالمكم الهائج المتأجج إلى ما يقارب الزيف،.. ربما هكذا أفضل، لا نحب لعالمنا أن يكون نسخة مصورة من عالمكم،.. اغربوا عنا إلى أن يُقاضى بيننا وبينكم فدعونا نعيش في أمن وسلام.

ما أقسى عالمكم وأقذره! لم تُجْدِ فيه رسائل سماوية، ولا عجائب دنيوية ولا كوارث طبيعية، ولا ثورات ثقافية، ولا نظريات اقتصادية اشتراكية أو رأسمالية،.. عالمكم عجيب، لو خير الأنبياء والرسل أن يبعثوا فيكم من جديد لما قبل بكم نبي واحد، وإذا ما قبلوا طاعة وخشية فإن الرب يشفق عليهم، حتى الجن والشياطين لا تجرؤ على الامتثال أمامكم، إنكم عالم تتصارعون فيه على الرذائل، من أجل ملك

زائل تُقْطَعُ الأعناق بالفؤوس والشواقيف مثلما يقصل القصيل وتجز الصوف من الشياه،.. إنكم تذبحون أطفالكم، وتستحيون نساءكم، وتحرقون مدارسكم ومعاملكم وعياداتكم، وتفجرون قناطركم، وتقتلون الأئمة والأطباء والعلماء والعجزة والقساوسة، حتى الضيوف والسفراء لم ينجوا من شروركم، تخربون بيوتكم بأيديكم،.. ليعلو في النهاية المأساوية الكرسي مجرم لبعض الأيام أو الشهور،.. لا تحبون آدمياً ولا شيطاناً ولا جاناً أن يرأسكم،.. هل أنتم أمة محكومة بلا حكومة، أم أمة ذات حكام بلا محكومين؟

نرجوك، نرجوك بجاه "سيدي الجيلالي" الذي أنت الآن في حرمته أن تغرب عنا، وتتركنا نعيش في أمن وسلام! في عالمكم الواسع دولة واحدة تجاوز أسماؤها وألقابها المليار، فلماذا تستعيرون من عالمنا الذي تنعتونه بالوهمي تارة، والماورائي أو الميتافيزيقي مرة زيداً وعمراً وشهرزاد وروبير وماريا وجاكلين وأنطونيو؟.. مثلما لكم عالمكم لنا عالمنا فلكل منا أسماؤه، إنكم تفرون من واقعكم الذي انقلب عليكم، واقع لا يزيد كل يوم إلا حبلاً بأحابيل مجهولة المصادر،.. يلجأ التعس منكم إلى عالمنا الذي لا أبعاد ولا حدود له، ليعود إلى عالمه المحدد بجهات أربع جذلان نشوان، وقد أثقل كاهل عالمنا من مزايدات وخروقات لا وجود لها أصلاً فيه، .. كأنكم تتدربون على الهجرة السرية البيضاء إلى هجرة آتية لا مفر منها سوداء، تحبون أن تنفلتوا من عالم لا ترغبون أن تكونوا عالمين فيه بكل شيء، تعافونه، تشرئبون بأخيلتكم إلى مدينة فاضلة تحلمون بمثالياتها فراراً مما تقاسونه من جحيم وفقر وهلع وإرهاب.

يلوح في أفقنا أنك ما زلت منشغلاً بتقليم أظافرك غير عابئ بآهاتنا وتوسلاتنا،.. ليست لريشتك فيما يبدو، ذمة، إنك رجل أبله "كاتب" ساذج؟.. لن يقبلكم عالم آخر غير عالمكم الذي أنبتكم ورعرعكم القدر فيه، ولو بدلتم ألوانكم وجلودكم،.. ولكنكم أمة مراهقة، شعوب قُصّر، أمم أخرى بلغت أشدّها، تعلمت، بحثت، صنعت، انتجت، حسّنت مستواها العلمي والتكنولوجي،.. أما أنتم، فما زلتم تحلمون بعودة "المهدي المنتظر" ونزول "المسيح الدجال" فتتعطل الرشاشات، ويبطل مفعول القنابل الذرية والهيدروجينية، وتتجمد بقدرة قادر المحركات النفاثة للغواصات والصواريخ العابرة للقارات؟.. يكف الناس فيه عن التظالم وتمتلئ الأرض عدلاً وتفيض المعمورة بالخيرات، فيشبع الجوعان، ويروى الصدْيان، ويكسى العريان، ويتماثل المرضى إلى الشفاء من السيدا والسرطان، ويتعلم الجاهل ويكرم العالم،.. إلى ذلك الحين، ألا تدَعُوننا نعيش في أمن وسلام؟

خدعنا عالمكم بشعاره الأجوف "الحر بالغمزة، والعبد بالدبزة"، ولكنك أنت لست من هذا الصنف ولا من ذاك، ولم ترحم حتى مستقبلك، قرأته في فنجان قهوة سوداء لا في كأس من الحليب، ولو سألت المنجمين والعرافين لكنت اليوم تجني أموالاً طائلة، أموالاً مرغوبة في سوق المال والأعمال وقيم البورصات، لا رسومات تشكيلية سريالية منمقة، في كل عشرية من عشرياتكم تتفنن بنوككم في تنقيح خطوطها وألوانها وأشكالها.. أعظم الرؤساء الغربيين كان لهم منجمون ومنجمات، هل أنت أفضل من الجنرال ديغول، وفرانسوا ميتران وآخرين؟.. لكنك أبله، مغفل، "كاتب" مزعوم يزعم أنه يرشد الناس إلى ما فيه فلاحهم وصلاحهم، وأنت أفقر الناس إلى الصلاح والفلاح،.. لو تعهدت صوتك وروضت أناملك على الانسجام،.. وعودت رجليك وكتفيك، تعلو وتنزل واثباً كالغزال تارة، ومقلداً "الشيوخ" والعرفاء كالقرد تارة أخرى لكنت اليوم أمهر راقص في "لعلاوي" الذي كنت مخبولاً به، .. رقصة تدر عليك أضعاف ما ظللت تجنيه مما تخطه من كلمات بائسة بلغت دركها الأسفل، الرديء فيها جميل، والجميل فيها رديء، وبأية لغة؟

أقلعت عن مخادنة "الكتابة" منذ سنوات خلت، بلغ بك اليأس آخر ما يبلغه امرؤ من عالمكم في حياته، منذ هجرتك تلك الملهمة التي امتزج شيطانها بشيطانك، صنعتما الأعاجيب، حسبتما أن الزمن لا يدور عقرباه عكس ما تحبان، كنتما لا تتمتعان إلا بمقدار، هنا وهناك.. تركتك جثة هامدة، أضحى الإلهام عدواً لك، لم ينجك من بطشه شيصاني ولا عبقريّ.. كنت إذا تمثلت ملهمتك بدأت تهذي سراً وجهاراً لتخط بعد ذلك ما يدور بخاطرك، وإذا انتقدت فيما صدر عنك في تلك اللحظات القلقة أنكرت أن يكون ذلك الهذيان منك، أما الآن..

ليست ملهمتك التي تحولت إلى ريشة لا شعورية أو كاهنة من كاهنات "باخوس" كل الأسباب في عقمك، هي لم تحل بينك وبين مزمارك ومعيزك وخرافك، ليس لها إثم في عزوفك عما علمك الرعاة المهرة من رقصات "علاوية"، وعزف على الناي، وضرب على البندير، ولعب بالدف، .. هجرت تلك الفنون الرائجة يوم هجرت من جنوبك إلى الشمال، خلعت من على رأسك "الرزة" وحلقت ما كان يعلو سطح رأسك من قُصَّة، وعاديت السروال "العربي" وتكته الصوفية البيضاء لترتدي سروالاً "رومياً أمسيت تستلذ جواً باريسياً مفعماً بالفرح والملذات، أنساك كل شيء، في وقت قصير، "لالة ستي" وربوتها التي كنت تطل من على شرفاتها مرتين على الأقل في كل أسبوع، بدلتها الآن مرتين بالسينما والملاهي

الليلية أين ولعلك بـ "بني بوبلال"، وتعلقك بـ "غار بومعزة"، وشغفك بـ "لوريط" وزيارتك "سيدي بومدين" في كل جمعة؟.. حسبت أن الحياة الجديدة آخر ما تصل إليه مدينة مثل مدينة باريس الملغمة بالمغريات والخدع، أردت أن تكون مثل الغراب الذي.. تعرف البقية.

ها أنت ذا صُلْت وجُلْت، عالمنا لا جهة له، كان دوماً لك ولأمثالك بالمرصاد، ليس عالمنا فضولياً يتقصص آثار الناس من عالمكم، ولكنه عالم معتدى عليه بشكل دائم من عالمكم الهش الذي مططتموه إلى قارات وشعوب وقبائل، وها هم الخلفاء فيه شرقاً وغرباً يُغْرونَ المغفلين والحمقى من أمثالك بأنه تحول إلى "قرية صغيرة"، وعما قريب، سيقولون لكم: آل إلى "مائدة عائلية واحدة"، يستوي إليها خليفة أمريكا مع خلفاء فرنسا وكندا، وحكام بوركينافاسو والصومال وأفغانستان، .. الناس سواسية.. لا فرق بين.. ألا تهتمون بهمومكم وتذروننا وشأننا ننعم بأمننا وسلامنا؟

وأنت بالضبط، ألا تلتفت إلى مكتبتك التي أُرضَتْ فاغبرت كتبها، واصفرت أوراقها، واحمرت رفوفها،.. ففيها ما يلهيك عن "كتابتك" اليائسة، وجشعك في المزيد من شهرة زائفة وذيوع صيت صحافي محلي؟.. نعرف أن قلمك بيدك لا يرتعش قبل أن يرتعش لتذّكر ملهمتك قلبُك وبدَنُك، كأنك تأبى إلاّ أن تعيش بحاضر مزيف من أجل غد كاذب، لتكن كما تريد، ما دمت "فناناً" بارعاً في تزوير شخصيات تستعبدها في هراءاتك، وأنت متستر وراء ضمائر منفصلة، لتكن كما تريد أن تكون اتركنا، فقط، نشعر بنعمة الهناء والسلام.

لو كان لك اليوم مُلْهمون أو منجمون لذكّروك بما وقع لك في مكتبتك المنسية المغبرة التي شغلتك عنها الصحف بما تطالعك به يومياً من عناوين دموية منذ عشرية كاملة، لم تترك لك هذه العناوين الحمراء هنيهة ولا ذوقاً لصقل وجلاء ما اعتلى عقلك من صدأ وتفكيرك من وجوم وألم.. ولعلك تناسيت ذلك عمداً، لأنك لم ترض بـ "هدية" مسمومة ألقيت إليك من عالم ثالث يشبه عالمكم أو يكاد يكون نسخة منه، ومن يدري؟ لأنك ما زلت توجس في نفسك خيفة من كشفها لأبناء عالمك الذين غدوا لا يحفلون إلا بكل ما هو ممتع ومشوق في رداءته، رائع جميل في إسفافه..

ما أنت فيه، لا يكون لك مبرراً قوياً لئلا تدعنا وشأننا ننعم كسائر العوالم الأخرى بهدوء وراحة وسلام، فلكم عالمان: عالم تشقون وتجهدون فيه أنفسهم،

وتقترفون كل كبيرة وصغيرة، وعالم تنتظرونه غير مصدقين بمقت وجبن، ويتمنى الواحد منكم لو يعمر ألف سنة بل تؤثرون الحياة الدنيا.." ولا ترون الموت ماثلاً إلا في جنائزكم ومقابركم.

عالمنا لا حدود له، ولكنه احتار والتبس عليه أرقام رقّموكُم بها، ومراتبُ رتبوكم فيها، عالم أول، وثالث،.. عالمكم الذي أصبح مجهول المرتبة، تدحرج صاعداً إلى مرتبة سفلى! مما لا شك فيه أنكم تشعرون بالغبن، لكنكم هل ستحسّون ظلماً إذا ما رُقيّتُم مما أنتم فيه يوماً من مرتبتكم المجهولة إلى عالم رابع، وبعد عقود من السنين إلى عالم خامس، وبعد قرون، إن شاء الله، إلى "سبعة زائد واحد"! كل ما عرف عالمنا عنكم أنكم لم تبقوا بقاءكم ذلك العالم القديم الذي لم تكن تغيب عنه الشمس، ولا تحولتم إلى عالم آخر، كل ما عرف عالمنا عنكم أن كل شيء فيكم ولديكم تدنى وتدهور، لغتكم، عملتكم، ثقافتكم، إنتاجكم، حتى طبائعكم لم تبق تلك الطبائع السمحة الكريمة، وكل ما هو ماثل لنا أن عالمكم سيكون سعيداً جداً لو ستقبله العولمة التي غدوتم تلهجون بها، وتستهرون بعواقبها بواباً لها.

ما أبلهك! ما أنت إلا "كاتب مهذار بدون معنى، كأنك تريد أن تبرز لتقول شيئاً ما، كأنك فرغت من تقليم أظافرك أم أنك كنت طوال هذه الثرثرة تسخر منا؟ كل ما نعرف عنك أنك "كاتب" معتوه، لو حجزت ما وقع لك منذ عشرية، ووجدت في نفسك شيئاً من الجرأة لكشفها إلى ناس غير ناسك، وبلغة غير لغتك، وبضرب القيم والمثل العليا عرض الحائط، لكنت اليوم، وحتى قبل اليوم، من "المبدعين" المرشحين لجائزة "نوبل" للآداب، أو نسيت كم حاولت "كاهنتك" أن تحمسك شهوراً قبل هجرتك فراراً من جحيم وإرهاب عالمكم؟ كنت تقول: إن الساعة لم تحن بعد لكشف عنوان ذلك المخطوط "الإبداعي" وما يتضمنه من آهات وأفكار إلى عالم غدا يخنق الكلمة قبل أن يتفوه بها صاحبها.

نراك تتمتم، كأنك تريد أن تقول شيئاً، ليس عالمنا مستبداً بالسرد الكلامي مثل عالمكم، نراك فعلاً تهم بتحريك شفتيك الجافتين "هو عاش أكثر من ثورة وحدث في هذا البلد، ولم يرد أن يكون هو وأمثاله دائماً في طليعة من يدفعون ثمناً تستغله فئات من المتطفلين، ولا تستحقه فئات أخرى من المنتهزين، ويحمده جماعات من المنزوين في باريس، ونيس، وروما، ولندن، وجنيف،.. المحميين بأجنة الزمان الذين تعودوا من الطلائعيين الصامدين أن يحملوا في كل حدث

عارض جسيم أعباءهم وتبعات نكوصهم".

سيان أن تكشف اليوم ما فاتك منذ عشرية أو تخفية، ألا تريد أن تقلع عن بلاهتك وعتاهيتك لحظة واحدة حتى تدرك أن ما كان أكثر جاذبية وأدعى إلى الفضول أمسى الآن عادياً فاتراً، تجاوزه الزمن بعقود أو حتى أكثر من قرن أم نسيت أن عالمكم مغزو في عقر داره بقنوات فضائية جهنمية وبرد إلكترونية وانترنيت فاغر شبكته؟

ولم لا تكون صريحاً، ولو مرة؟ تعلم قبل غيرك أنه لم يعد لك مجال لتستعير وتبدل ما فرض عليك من شخوص وخيال من عالمنا منذ عشرية، لست قادراً على زحزحة بنية "كتابية" سبق لساردين ذوي ثقة أن بثوا فيها، ولكن ثغرة هؤلاء المستعبدين أنهم ليسوا من ذوي المعرفة بكل شيء، يؤمرون فيطاعون، قد يثرثرون مثل ثرثرتنا هنا معك، قد يصمتون تماماً، مساكين ليست لهم قدراتك التخمينية ولا قواك التخيلية، ذنبهم الوحيد أنهم من عالم يختلف عن عالمكم.

جنونك لا يمنعك من تهشيم كل ما بناه أولئك الأشقياء الأسرى في دقيقة واحدة، عالمنا أدرى بهوسك كلما زارك المخاض وهممت بقلمك، هذه المرة لن تستطيع، ألم تدر بعد لماذا؟ إنها بنية داخلية مفروضة عليك فرضاً من الخارج، لا تستطيع أن تحركهم هنا مثل الدمى، لن تجد قيد أنملة من الوقت لتحك شعرك، وتقلم أظافرك؟

ألا يحق لعالمنا أن يرتاح الآن من بلاهتك وعتاهيتك؟ سنقيم حفلاً لم يشهد عالمنا مثيلاً له من قبل، لن ننسى على كل حال "كاهنتك" ومعها كاهنات "باخوس" إذا أعفاهن إلههن من الوحي والإلهام لبعض الوقت، ومعهن "أفروديتا" حتى ترد إلى صاحبتك التي تجاوزت العقد الرابع بريقاً من الحب والجمال، ستكون "هيرا" وسيطة بيننا وبين "باخوس"، لا نحسب أنه سيرد طلباً كريماً لـ "زيوس"..

أتدري لماذا بدا لنا أن ندعو "كاهنتك"؟ إنها ليست مثلك بلهاء، ولا مغفلة، إلى جانب أنها تمونك بالوحي والإلهام، فهي تدنو إلى حد ما مما تستعير من شخوص عالمنا، هي تسترد حريتها بمجرد فراغك من "خربشتك" وشخوصنا تظل حبيسة حروفك، عالمنا معجب بها على أي حال، فأنت كثيراً ما جشمتها مهمات عسيرة وأدواراً خطيرة فاقت أحياناً طاقتها، وأحياناً أخرى كادت تتفوق على شخوصنا، ألا تستحق بجدارة دعوة من عالمنا لتكون مرحة من بين الجميلات؟

يلوح في أفق عالمنا أنك تريد أن تقول شيئاً ما، لك ذلك ما شئت ومتى شئت، لن تجد عالمنا مستبداً سيخلي لك الطريق، سيتموقع هناك على العتبة، عالمنا متهم من عالمكم خطأ أو صواباً بأنه ليس صاحب معرفة كلية بكل ما يدور بخلد عالمكم، نراك تتململ، تتعصر، تتقلى، لا بد أنك مصر على قول شيء ما: "ما كنت أحسب قبل هذا أن مظاهر الرياء والنفاق ماثلة ومتداعية حتى في فضاء لا أبعاد له، وفي زمان بغير مكان، حتى هذه المخلوقات التي كانت حتى عهد قريب نسخرها كيفما نشاء تتودد الجمال والقوة وتمالقهما، سارة لا تدعى لأنها فقط إحدى كواهني الغابرة، بل لأنها أضحت تنتمي إلى عالم آخر.. لن أثلج نفوس هؤلاء البلداء، سارة تبقى سارة، سأكلفها بدور أضخم جسامة مما عهدته، حتى لا أدع لها برهة تفكر فيها لقبول تلك الدعوة التي أشم فيه مسك الشماتة، لن أقبل وساطة من "أفروديتا" آلهة الحب والجمال، ولا من "هيرا" زوجة كبير الآلهة، سارة لا تبرح عندي جميلة ولو بلغت الستين أو السبعين، وإن رفضت وركبت رأسها كدأبها أحياناً، سأقضي عليها في بضعة سطور سأكدر عالمهم، سأستعير من جديد منه بطلة مزيفة لتكمل بطولة المغفور لها سارة،.. لن أتوانى في تحويل احتفالهم مأتماً، سأيتمهم في المزيد من بناتهم وأبنائهم، .. غير مهم عندي كثيراً، جمال أو دمامة دُمَاهُمْ، جبْنُهُمْ، أو شجاعتهم، ما يهمني أكثر ما أحملُ به هؤلاء الأشقياء الذين خُلقوا عبيداً لعالمنا من مهامّ وأدوارٍ أشفقنا على شخوص عالمنا منها،.. سأكشف في مناسبة أخرى ما وقع لي منذ عشرية في الزمن المناسب، لن يجبرني على ذلك أحد".

ألم نقل لك بأنك "كاتب" أخرق وإنسان أحمق؟ تحسب أن الوقت لم يزل بعد مناسباً لتغير خارج وداخل هذا العالم من حولك،.. سنخطف سارة طوعاً أو كرهاً، سيستنجد عالمنا، إن اقتضى الحال، بـ "آريس"، وحتى "زيوس" ليحول أرضكم إلى سماء، إلى فضاء بغير جهات، لن تستطيع ريشتك الهشة الخرقاء مثلك أن تنفذ من أقطاره، لأنه لا قطر له، سيجف حبرك ولو كان يَمّاً ستنفدُ كلماتك، لَسْتَ إلهاً، يبح صوتك، ينعقد لسانك،.. آه! سيرتاح أخيراً عالمنا من عباراتك الطنانة البذيئة، وصورك الباهتة، وبلاغتك الكاذبة، .. أنت مثل الراعي عندكم، إذا لم يجد ما يعمل لجأ إلى نعله يفتقه،.. فيا عجباً! كيف يتحول راع بين عشية وضحاها إلى "..."؟، يدخل الجامعات، يحصد الشهادات، يقتنص أجمل الفتيات من أرقى العائلات ولم لا يطمح غداً إلى "..."؟ الحمد لله الذي حسب لكل شيء حسابه، جعل لكل شيء خطوطاً حمراء.. أفّ لك يا ديغول ولمنجمك الرائد موريس فاسيه؟

لولاهما لما كان اليوم رعاة وفلاحون وحتى خماسون يستفزوننا ويستهترون بشرف أجمل جميلاتنا، يحولون أنظف مخلوق فينا إلى جانٍ، وأَعْدَ لنا إلى طاغٍ باغٍ، وأقدمنا إلى جبان..

يلوح لنا في أفق عالمنا أنك بُهتّ، تكاد تخرج من جلدك، وتفقد صوابك، الباطل أخرسك، الحق مر مذاقه كطعم العلقم، كما قال شاعركم الذي حرموه أجمل فتاة أحبها في حياته، إذا صر حقر، وإذا كر شكر، لم يشفع له عندهم شعريته، ولا بطولته وفروسيته،.. حول المعجبون حياته المثقلة بالمكائد والمتاعب إلى سيرة يتفكهون ويتسلون بها،..

يلوح في أفق عالمنا أننا نشم فيك مسكاً حاراً لا طيباً من العناد الأعمى ألم تدر بعد كل هذا لماذا!؟ لأنك أبله، "كاتب" مغفل،.. لو كنت راعياً عاقلاً وإنساناً لبيباً، وتعهدت "ثلاثيتك" و"رباعيتك" و"خماسيتك".. و"ثمانيتك" وواصلت الشدو والرقص والزمر لخرافك ومعيزك لكنت اليوم.. إذا لم تدعنا ننعم بأمننا وسلامتنا غير منقوصين، فإن "آريس" سيكون بجانبنا سيقهر "سيدك الجيلالي" لنا العمل، ولكم "الفاتحة".

يلوح في أفق عالمنا أنك تهم بقول شيء ما، لن تكون بحاجة إلى محام، ولن نكون بحاجة إلى قاض، تكلم مالك واجماً؟ تكلم جهراً، هذه آخر فرصة، لا تتستر جباناً وراء حركات وأفعال شخوصنا، تهم بقول شيء، قل أي شيء: "لن تؤخذ سارة مني يا كلاب، سأهشم عالمكم الضبابي القذر، سأوظف شخوصاً وشخوصاً فيما تسمونه "خربشة"، سأجعل شخوصكم عبيداً خماسين، عمالاً في رمي الأزبال، خدماً في الحانات، سأرمي بهم إلى حروب ضروس لا تبقى ولا تذر كمرتزقة في الشرق الأوسط، وأجزاء من إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية،.. سأنشر بناتكم في شوارع وأرصفة باريس، مرسيليا، مدريد، لندن، نيورك، روما،.. في قصور فخمة أخرى لا يراهن إنس ولا جان،.. لن تأخذوها مني، لن تأخذوها، .. ولو أدى الأمر إلى الإعلان عن حرب كونية..".

يلوح في أفق عالمهم أن القرويين يهرولون إلى هذه الشجيرة بعصيهم وكلابهم، سيجلدونه سبعين جلدة، ذلك جزاء كل من يقيل ويستظل تحت شجيرة "سيدهم الجيلالي"، دعهم وشأنهم ينعمون بهدوء وأمن وسلام!....

خيل، بارود، سباق "القُوم"..... انتفضت انتفاضة واحدة، شعرت بحرارة على غير العادة تسري في جسدي، أمطار تتهاطل عليّ وأنا متدثر بثلاثة أغطية،

وجدت نفسي أستحم عرقاً وحولي فقيه الحي، وبجانبه زوجتي، وولداي المراهقان، وهو يسألها:

. هل سمعته يقرأ شيئاً من القرآن قبل حضوري؟!..

. بلى..

. وأي شيء كان يقرأ؟..

. قوله تعالى: «بل تؤثرون....»...

. فقط...

. أجل...

«. إنَّ زوجك، يا سيدتي . "مسكون"» بجانٍ مارد كافر، وإلا أتم الآية، الجان الكافر أيسر علينا في هذه الحالة التي عليها زوجك مما لو "ضَرْبُو جَنْ مُمَنْ"، جهزوا مجمراً زاهراً، فصاحبه جاهلي من بني الشَيْصان. ألم تسمعوا قول حسان:

ولي صاحب من بني الشيصان فحينا أقول وحينا هُوَهْ

لا تقلقي، يا دكتورة، كل من يتجرأ على خرق عالمه ولوجاً في عالم غيره إلا ويلم به ما ألم بزوجك، لا مناص له من ملهم، عادة ما يكون من هذه القبيلة الجنية أو طائفة جنية أخرى تقطن أرض عبقر، هم أمم أمثالنا، يروننا ولا نراهم . وإذا ما تراءى أحدهم لنا يمثل في صورة أحد لا نرتاب في شخصه، عبقر أصل وجودهم، جاؤوا مع الفاتحين منذ أن وطئت قدم الصحابي الجليل سيدنا أبي المهاجر رضي الله عنه ضواحي تلمسان، هم موجودون في كل مكان، حذري ولديك من الذهاب ليلاً إلى عيون أبي المهاجر، لأن هؤلاء مسلمون، ليس من السهل طردهم ممن "يسكنونه"...

لشعراء يونان آلهة إبداعهم، وللعرب عبقريون، الأولون وثنيويون أسطوريون، والثانون "أرواحيون"، ألم تسمعوا قول شاعرهم لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبنيِّهُمُ كهول وشبان كجنة عَبْقَر

والعبقر، يا دكتورة، واحد وجمع، وأنثاه عبقرية، آهْ، يتزوجون حفاظاً على

سلالتهم، وهم لا يتزوجون كافرة، والجنية منهم لا تتزوج كافراً، ولذلك حين يبلغ اليأس بجنية كافرة "تسكن" عربياً وتتزوجه، ولا تستطيع بركة فقيه أن تخرجها من "المسكون"، إلاَّ بتقديم شكوى لرئيس الجن الأعظم.

ويقال: ثياب عبقرية تعجباً من جودة صنعها لأن جاناً من جنة عبقر هو الذي ألهم صانعها مثلما يتلقى كل شاعر عربي منه "وحيه" وفي الحديث: "أنه كان يسجد على عبقري"، وفيه أيضاً: "فلم أر عبقرياً يفري فريه"، من قولهم: فَرَيْت المزادة التي تصنع من أدم، إذا خلقتها وصنعتها، قال راجزهم:

شَلَّتْ يَدَا فارِيَةٍ فَرَتْها

وكل حاذق أتى بالعجب العجاب في عمل أو إبداع، قيل فيه: "فلان يفري الفريّ"... وقال تعالى: "وعَبْقَرِيّ حِسانٍ"، وقرأ بعض القراء: "وعباقريٍّ"، .. ربما حتى ينسجم الموصوف بالصفة، وهو لغوياً خطأ، لأن "المنسوب لا يجمع على نسبته،...".

ما إن رمق الفقيه الذي كان مسترسلاً في شروحاته اللغوية إحدى الجارات، وهي تدخل بمجمر "بَيْدَرِيٍّ"، زاهر وضاء مبسملة ومسبحلة ومحركة شفتيها بغمغمات أخرى حتى انقطع الفقيه عما كان فيه من حديث جذبني به إليه جذباً، وشدني إليه شدَّاً، وأنساني ما رَهْقَ وجهي من امتقاع، واعترى جسدي من حمى وعرق،.... إلى هنا كانت الأمور عادية لأن الحالة التي يكون عليها أحد مثلي تجعله يتخيل فعلاً بأن شيئاً ما خارج ماهو طبيعي قد ألم به، أَلَمْ أُمْسِ وأنا كسائر الناس . وها أنا ذا أُفِيقُ في ضَحْوة متأخرة، ولا أشبه أحداً من الناس؟.. بدأت أجمع وأسترد وعيي شيئاً فشيئاً، وأثوب إلى رشدي تدريجياً، لكن الفقيه لن يتدوّم أكثر مما تدوّم، ولينتظرني حتى أتخلص من كابوس تلك الليلة الثقيلة تخلصاً كاملاً، أمر الكل بالانصراف، لم يبق في الغرفة سوانا، أراه يرسم أشكالاً من المربعات الخماسية والسباعية وجداول مختلفة على وريقات وقطع فخارية... الفقيه جاد، أخرج قضيباً حديدياً تعلوه صفيحة مستطيلة ليست غريبة عني كل الغرابة، إنها "الشيطابة" التي لطال كان فقيه مسقط رأسي يضعها وسط النار حتى يَحْمَرَّ نصفُها الأسفل، ويَبْيَضَّ نصفها الأعلى وبسرعة لمعان البرق يلتفت مهدداً وموعداً الجان بالخروج من "المسكون"، فإن تردد الجان أو تماطل قليلاً، فالويل للشخص "المسكون" من كيّ "الشيطابة" مرة بعد مرة، وما أكثر ماكان هذا الجان أو ذاك يجري مفاوضات طويلة مع الفقيه قبل أن يبارح مكانه، فينحى باللائمة على

"المسكون"، الذي قد يكون داس لـه ابناً صـغيراً فـي ثَعَبٍ، أو "تخطـرف" علـى مَثْعب كانت الجنية تستحم فيه، أو أهرق كأساً من الماء المغلي فأحرق بعض صغاره،... لكن صبر الفقيه كثيراً ماكان ينفد ليدرك في النهاية أن تعلات الجان ليست أكثر من ربح للوقت لإفشال إصراره لأن الجن تعلم عن الإنسان مالا يعلم هو عنها.....

على أي حال، في هذه المرة لم أكن أبلـه ولا مغفلاً مثلما وصفني بـه طـوال ليلة كاملة عالم الأشباح، انتفضت من مخدعي انتفاضة واحدة وهممت بالخروج من تلك الغرفة، حاول الفقيه إمساكي عَبَثاً وهو يصيح: "أمسكوا بـه، ساعدوني، كان يجب أن نربطـه بحبل إلـى السرير،... حين رمق اللعين الكافر "الشيطابة" محمرة و ما صاحبها من تلاوت قرآنية، حاول الفرار بـه، حتى يبقى داخلـه أكبر وقت ممكن "هو خَرَجْ خَرَجُ"،... أغلقوا باب الدار، ساعدوني، لا تدعوه يخرج من الدار، قد يشكل خطراً على المارة، وسيعود عليه بالضرر،..."، لم يجرؤ أحد على الاقتراب مني خوفاً من صاحبي الذي كان بداخلي، أما الجارة العجوز، فتبعتني بلطف وحذر وهلع، وكنت أسمعها تردد:

"يا جن أحمر، بجاه سيدي أعمر، ما تخرج مَهْدَ الدَّارْ، وتْخَلّينَا نْعيشْ في أمن وسلام"، فقلت في نفسي، وأنا مصمم على مغادرة الدار: "سبحان الله! ما الذي أدرى هذه الجارة بما جرى في ليلتي"؟

←←

المقطع الثاني

ليس مجاناً أن يَصْدُقني القولَ أحدٌ لو أفضيت له بأن ذلك المشهد الرهيب الذي لا تماثله إلا مشاهد العالم الآخر الذي تخبرنا به الرسائل السماوية، لم يروعني كبير ترويع مقارنةً بما هالني وأذهلني ذلك الفقيه الريفي الحضري بتحصيله الواسع للتراث الأدبي العربي وثقافتهم وأساطيرهم، ولكن هل فِقه ولداي المراهقان وأفادا علماً مما تفوه به الشيخ شيئاً من الأدب واللغة يسيراً؟...

جاب الشيخ بلداناً مشرقيةً ومغربية وما مر بمدينة إلا وعرَّج على أشهر علمائها وأدبائها وفقهائها، وما خرج من مدينة إلا وأجازه وزكاه علماؤها، لكنه لا يحمل أية شهادة مدرسية أو جامعية، وهو مما يتعارض وطبيعة الوظيف العمومي في بلده، طرقت شهرته الفقهية وزارة العدل التي اقترحت عليه قاضياً شرعياً فرفض خوفاً من أن يكون من القاضيين، حاول أن يحصل دون طائل على شهادة تعادل علمه لعله يجد وظيفة يسد بها رمقه بطريقة شريفة، رثى محسنو حيه لحاله وأقاموه إماماً، لكن مديرية الشؤون الدينية رفضته للسبب نفسه، لم يبق لديه إلا سبيل واحد للاقتيات، أن يعلم صبية هذا الحي شيئاً مما تيسر من القرآن، وهي مهنة كافية لإعاشة عائلة صغيرة لا تتعدى فردين.

ألا حبذا لو دام خطاب الفقيه على نفس حال ما كان عليه، بيد أن خطابه، كما عرف الجميع من الحاضرين، اتجه وجهة أخرى . فاضطرني إلى هجر الدار على عجل، وأنا لا أكاد ألوي على شيء، هل يَصْدُقَني القولَ أحدٌ لو اعترفت له، بأني كنتُ أحثُّ رجليَّ بكل قوة إلى الأمام، وهما تأبيان إلا الرجوع القهقرى، كأنهما سُمِّرتا تسميراً أو شدتا إلى...

وما أدراه؟ ربما لم يكن الموقف بهذا الحجم من الهول الذي تخيله!... ولكن، يبدو أن الأمر قد خيَّل إليه هكذا على الأقل، على نحو لا تنفع معه شجاعة في مثل هذه الأحوال التراجيدية، وإلا فكيف وجد نفسه بعد دقائق معدودة يجوب بتيه وكبرياء مع سوء نية في كل من كان حوله من المتجولين والمتسوقين وحتى الباعة والشرطة؟!..

جعل يتأمل سائحاً في أزقة ضيقة لمدينة تلمسان العتيقة، وكأنه يراها لأول مرة، ما من شك أنه لا يستطيع أن يعدد الجولات السابقة، ولكنه يشعر لأول وهلة بنكهة سياحية ذكرته أمجاد الرومان والموحدين والزيانيين،...

ومن يدري؟... لعل قصده لهذه الأزقة التي أنسته كل ماهو حداثي وعصري من صناعة وعمران لم يكن من باب المصادفة، لماذا تحاشى الساحة العمومية الوحيدة لهذه المدينة؟ لاشك أن شيئاً ماكان يساوره، الناس في هذه الأزقة الشعبية الضيقة ناس بسطاء طيبون، راضون بما قضى لهم القدر من نسيان وفقر وحرمان، خلافاً لأولئك الذاهبين والعائدين صفوفاً صفوفاً، وجماعات جماعات طوال الصباح في تلك الساحة العمومية التي تتوسط البلدية القديمة والمسجد الكبير، فهؤلاء طبقات متمايزة من كل النماذج البشرية، غير أنها أشبه ما تكون بمرج البحرين، منها ما هو عذب فرات، ومنها ما هو ملح أجاج، كل شيء مهم قد يتم في هذه الساحة من صفقات تجارية، من زواج وطلاق، من تعيينات في مناصب، من عزل لمسؤولين، من رفض أو قبول لما يطرأ في فضاء هذه المدينة من جديد،...

أين ذلك كله من هذه الوجوه الطيبة من التجار والحرفيين والمتقاعدين أو المرضى المزمنين السابحين في فناجينهم وكؤوسهم، والمنتشين سجائرهم التي يمتصون، سَعُوطهم الذي يشتمون؟..

لم يعد اليوم مهماً كثيراً أن يكون الشيء جميلاً أو دميماً أو حتى يؤول الخبيث إلى الطيب، هذه الوجوه وتلك سيان، لم تلهه في لحظة واحدة كابوس ذلك العالم المرعب الذي بقدر ما أفاده وعلمه أشياء كان مغفلاً بشأنها، أمطره شتماً وذماً، وبلغ به التطاول أوجه حين طفق يكشف جانباً من حياته العامة وحتى الخاصة، المرء سواء كان في وعي أم في عالم اللاشعور يشق عليه أن يقبل بصدر رحب ما يوجه إليه من استفزازات، صريحة كانت أم تلميحات، ثم ماذا يكون موقفه مع نورة التي أقسم لها غير ما مرة بأنه لا يخونها حتى فيما يرى

النائم في منامه؟ يبدو أنها كانت مشمئزة من بعض الأسماء التي لاكها لسانه، وربما لم تسمع شيئاً هذا ما ستأتي به الساعات والأيام القادمة، بعدما تهدأ الأوضاع، وتعود المياه إلى مجاريها..

يعتبه على التفريط فيما أهمله من آلات زمر، ويزعم له أنه لو كان اليوم زماراً لكان لحياته معنى أفضل، ويذكره بـ"الشبابة" ذات الثقب المستديرة المختلفة،... هو تذكرها بعد عقود من السنين... سيسأل عن معناها اللغوي الشيخ الفقيه في أول لقاء يجمعهما في غير هذا اليوم، هو رجل علامة حفاظة لما أهملته المعاجم، وألقي به من كلمات عربية قديمة في المتحف، شيخنا الفاضل ليس له ولد يشغله، ولا تجارة كاسدة تؤرقه، ولا زوجة صغيرة جميلة تملأ عليه جوه،... لكن عالمه الصغير عصفور بين يديه، تصوروا أنه حتى هذه الساعة لم ييأس بعد من أن يرزق من زوجه التي أنافت على الخمسين مولوداً، هو وإن اشتعل رأسه شيباً، وبلغ من الكبر عتيًّاً، فإن صحته جيدة وحالته النفسية قوية، إذا ما دخل المسجد واستوى جالساً قبالة الكاتبيين، وأمسك المجلد حسبته جلاد سجون، وإذا ما عاد إلى الدار، إن لم يأخذه كريم، ألقى عصاه العقفاء، واسترخى قليلاً، ثم ينكب على الحفظ والمطالعة دون أن تعلو عينيه نظارة طبية..

لقد ملأ عليك الدنيا هذا الشيخ، حتى إنه لبلغت بك الجرأة الأدبية في كشف جوانب تخص طرفاً من حياته، ألا تترك هذا الفقيه وشأنه، وأنت تعلم أن الحديث مباح عن كل مليك ومملوك، إلا عن الفقهاء والأولياء؟ فهم علية القوم وقضاتهم، لا كلمة لأحد تعلو كلمتهم، حتى وإن كانت أعاجيب هذا الشيخ لم تنته، لأنه ليس فقيهاً كسائر الفقهاء..

خف الضجيج والعجيج في شوارع المدينة الرئيسة وأزقتها الشعبية إلى إشعار قريب، ماكان القوم أحوج إلى هذا كله لو غيروا نظام عملهم، ولكن الناس عندنا إذا شبوا على شيء..... مالك أنت ولهؤلاء؟.. حسبك مصائبُك...

يجب أن أعود، أتمنى ألا أجد ذلك الفقيه هناك، وإلا فسيكون لي معه حديث لا يسره، بقدر ما أذهلتني بلاغته وثقافته، حتى إني تمنيتُ لو كان أستاذاً لولديّ في مادة اللغة العربية لعلهما يقبلان عليها قليلاً ويتعلقان بسحرها وجمالها، أغضبني تصرفه السريع لولا لطف من الله...

لست الوحيد الذي اتهمه عالم اللا شعور بالغفلة والبلاهة، نورة أيضاً زوجتي العزيزة بلهاء مغفلة، صدق من قال: "ما يَتْزَوْجو حتى يَتْشَابْهُوُ". أما ذلك

الشيخ رغم تسرعه، فلم يقم إلا بما تمليه عليه وظيفته.

هاهي ذي المقاهي فرغت من زبائنها إلا من أفاقين وعابري سبيل، عادة ما يأتون من ديار دانية ونائية لزيارة الولي الصالح "سيدي بومدين"، الذي لا يبعد عن هذه الأزقة الشعبية العتيقة إلا ببضع مئات من الأمتار.

يجب أن أعود، لم تعد لي حجة بالبقاء خارج المنزل، أتمنى.... وإلاَّ... لن يكون بوسع نورة أن تعيرني بالبلاهة، وتنعتني بالسذاجة بعد اليوم، وقعت في الفخ نفسه، أليست المرأة نصف الرجل؟.. يجب أن تتقاسم معه فضائله ورذائله، محاسنه ومساويه، كيف سمحت لها بلاهتها بإحضار الشيخ من أجل غيبوبة قد تعتري الملايين غيري من البشر؟... أم أضحى كل ما يحدث من حماقة وقلق في هذا الكون إلا وأنت واجد وراءه آثاراً لامرأة؟ ألم تكن جدتنا الأولى، سامحها الله، وراء ما فيه البشرية كلها من متاعب وهموم عالم مقهور، وآخر مجهول؟؟..

كان بإمكان السيدة أن تتصرف بألف طريق غير ما أقدمت عليه... منيرة بعيدة، والحمد لله، وإلا تحولت تلك الغيبوبة إلى فاجعة ربما لا تحمد عقباها، ... هي سيدة جامعية، بيدها مفتاح حاضري ومستقبلي، فكيف تهوي إلى هذا الحضيض من التفكير؟..

لم تعد رجلاي مشدودتين إلي.... ولكنهما لا تبرحان مُثاقلتين ما زلت أشعر بدواخ مركز، وصداع ينخُسُني فيؤلمني أشد الإيلام، حتى وإن كانت الحمى تراجعت كثيراً، والعرق جف نهائياً، وهذه هي الأعراض التي تهم ناساً في حالة مثل حالتي...

لا أقل أي تاكسي، أعود راجلاً، لأروض عضلاتي، ويأخذ جسمي مظهراً عادياً،هذا يجعلني أثبت لكل من أضحى يشفق عليَّ ويرثي لحالي بأن كل شيء على ما يرام، في مقابل هذا لن تراني أنبس ببنت شفة لأعتب على نورة،... والواقع أني لا أعرف حتى الآن لماذا تصرفت ذلك التصرف، والشعوذة آخر ما يلجأ إليه إنسان نّوَّره علمه بنقضها وبطلانها؟.. هل تصرفت في منامي فعلاً تصرفاً جنونياً، فأخفقت أمامه أنوار العلم، وانسدت في وجهه كل حيل العلاج، ولم يبق لها حيلة غير إحضار الفقيه؟.. كل ما أعرف عنها أنها سيدة متطورة ومتشبعة بثقافة غربية، لكنها شديدة الإعجاب بالعادات والتقاليد والطقوس البلدية، بيد أن ما هو راسخ في ذهني حتى هذه اللحظة أنها لا تؤمن إطلاقاً بهذه "الخزعبلات"، إذاً، ما الذي وسوس لها في ظرف قصير من غيبوبتي لتغير

موقفها وتضحي مؤمنة بما باتت تكفر به؟...

حتى هؤلاء الأفاقيون جعلوا يفارقون هذه الكراسي واحداً واحداً بحثاً عن شواء أومطعم، وها هو ذا "المقهجي" وخادماه النشيطان البشوشان شرعوا يُهرِقون المياه التي بدأت تنساب رويداً رويداً أسفل أرجل الكراسي وقوائم الطاولات،.... فأنا لست زبوناً حديث العهد عندهم، ولكن على الفاهم أن يفهم، لا مناص إذاً من أن أغادر هذا المقهى على الأقل...

يجب أن أعود، إني نسيت شيئاً ليس أقل حيرة مما أنا فيه، لم أحسب له حسابه إطلاقاً، لم يخطر ببالي قط، أخشى أن تزيد نورة قلقاً مضاعفاً عليَّ، فتهتف و"تفاكس" لكل قريب وبعيد، وهذه طامة أعظم من إحضارها الفقيه قبل ساعات، ومن يدري؟.. قد تخطر شرطة البحث أو حتى مصلحة عيادة المجانين، فالمرأة قد تفعل أي شيء، إذا بلغ بها الخوف مداه إزاء ما تعزه وتحبه،....

لن يرغمني أحد على ولوج منزلي مثلما أرغمت على... لكني سأدخله عادياً مسالماً بارد الأعصاب، لا باسماً ولا مكفهراً... حتى ذلك الصداع طفق يزول تدريجياً، أكاد لا أشعر به، لا أثر لعرض غير طبيعي بقي بارزاً على ملامحي،.....

ما كادت قدما سمير تطأان العتبة، حتى دفعت الباب الخارجية على إثره دفعاً رفيقاً، وإذا بولديه يلجان، وفي يد أكبرهما الهاتف النقال، انصرف كلاهما بهدوءٍ وسكينة إلى غرفة الطعام، هل تعودا في غير الأيام الدراسية أن يتغذيا متأخرين أم أنهما كانا مكلفين بمهمة ما خارج البيت؟..

خلافاً لما كان يتصور سمير ويجول بخلده، استقبلته نورة رابطة الجأش مشدودة الأعصاب منطفئة الغضب، وكأن شيئاً لم يكن: "الحمد لله على سلامتك، لماذا تركتني أحتار عليك؟.. لم أفهم فهماً جلياً... الخطأ خطؤك، لو كنت نائمة بجانبك لما تأخرت حتى ساعة من....كنت أناغيك بصوت منخفض حتى لا أشعر الولدين، كنت "تتقعد" لكنك لا تلبث أن تعود إلى حالتك التي وجدتك عليها، وتغيب بسرعة، لا أخفي عليك، أرقتني أفزعتني، لم يحصل لك هذا الأمر منذ عرفتك، ماذا كنت تظن أني فاعلة؟ لم أبتعد عنك لحظة واحدة، بدأت أراقب في هلع وقلق شديدين تقلبك وانكماشك وتمددك، لم تكن حالتك تثبت على شكل واحد، تملكني الروع والفزع، تارة تهدأ طويلاً، كأنك تسمع متكلماً رفيع المستوى لا تريد أو لا تجرؤ على بتر حديثه، ومرة تغمغم بأصوات ممزوجة ما بين ضعف

وانكسار وتهديد ووعيد، وطوراً تتلفظ أشياء وأسماء، وأماكن أعلام بعينها: سارة، روما، باريس،... من يريد أن يتخطف منك سارة؟ ومن تكون سارة هذه التي أوعدت بحرب كونية من أجلها؟ مجرد أشباح على كل حال، فأنا كثيراً ما تمثل لي أشياء حتى من أتراب يُصْفون لك الود، ربما أغراني الشيطان باستحلائها، ولكنها مجرد أضغاث أحلام،...بقيت إلى جانبك سويعات، فكرت طولاً وعرضاً، فلم أجد أحداً ذا ثقة في مثل ما كنت عليه غير زميلي سي البشير، حضر قبل أن تنتهي مداومته الليلية، فحصك فحصاً طويلاً وأنت على تلك الحالة ما بين نوم ويقظة، وبدل أن يكتب وصفة نصح لي بألا أزعجك طالباً مني أن أدعك وماكنت فيه من هذيان حتى النهاية، لم يكن من حقي أن أَشْطُنَه، واكتفيت بالإجهاش، لكن سي البشير مالبث أن هدّأني مُطمئناً إياي بأن مثل هذه الأعراض، على الرغم من ندرتها، قد تحدث بين كل فينة وأخرى، وغالباً ما تعتري افراداً ليسوا من النوع العادي، قد يعزب الواحد منهم، وينجذب نحو عالم اللاشعور، ولا يثوب إلى رشده إلا بعد شحن جديد لذاكرته، لم يظفر بطلبه في عالم الشعور،... لم يكن كلام سي البشير لي كافياً، بمجرد عودته إلى عيادته، عاد إلى القلق والفزع من جديد، .... هاتفت "مامي" التي نصحت لي بإحضار "سي علي"، فأرسلت جارتنا في طلبه على عجل،.... كان بودي لو بقيت قليلاً إلى جانبك،... على أي حال، أنت الآن في هيئة لم تعد تدعو إطلاقاً إلى القلق، لن تصدق مامي، وأنت تستقبلها صباح غد بنفسك، لن أشعرها بتحسن حالتك، سأتركها لها مفاجأة، أنت تعرف كم صارت تحبك،..... يقولون: السحر، الشعوذة، الخرافة.... أنا أيضاً كنت أقول ذلك، وأتبجح بآخر ما وصل إليه علم الطب من صيحة، لكن بعد الذي شاهدت "أَحْنا مْسَلْمينْ لْفُقَها وْلَمْرابْطين"،.... لكن من أين لـ"سي علي"، كل ذلك العلم العجيب؟.. هل تعلم؟.. ما إن ولج الغرفة حتى بدأت تثوب إلى وعيك شيئاً فشيئاً، وما إن فر ذلك الجان الكافر حتى خرجت وراءه مقتفياً أثره لا تلوي على شيء، لا أذكرك بكل شيء، لا أحب أن أكون ثقيلة الظل عليك، ولكن يبدو أن ذلك الجان اللعين قد "ضبعك"، غير أن "سي علي" استمر في قراءته وعمله بعدك كثيراً، أكد لي أنه طرده شر طرد من طريقك، ووعده ألا "يسكنك" أبداً..... بالمناسبة، لم يعلم أحد بما جرى إلا جارتنا العجوز التي اشتريت لسانها بالتدخل لها لدى إدارة المستشفى لتوظيف حفيدتها وأما "سي علي" فيستحيل عليه أن يتكلم، وإلا وجد نفسه تائهاً في "الثلث الخالي"، أما الولدان فلم يعلما بالضبط ما حدث"..

منذ أعوام أصبح لي طبع خاص كلما تكلمت نورة معي أو بمعية حضور كريم آخر، كل ما أفعل أنصت مطرقاً رأسي، بعد أشهر قليلة على زواجنا كنت أتعمد مشاكستها ولو كانت أصوب مني في كلامها، كنت أتعمد استفزازها حتى تكون كلمة الرجل دائماً هي العليا، كان معي وقتها مثقفون جامعيون وجراحون يحملون درجات علمية أعلى مما أحمل يفتلون شواربهم ويتبادلون التبجح والتباهي بضرب أزواجهم، لم أصل إلى هذا الحد مع نورة، ولكني أردت أن أهيمن عليها بطرق أخرى، لم أعلم إلا بعد أعوام المستوى الثقافي الأدنى لأولئك السيدات المضطهدات اللائي لا تخرج الواحدة منهن من البيت لتتمتع بنور الحياة وحلاوة طبيعتها والتعبير عن وجدها ووجدانها إلا مرتين في حياتها.

منذ بضعة أيام قبل هذه الواقعة التي استعظمتها، فاتحتني برغبة انتقالها إلى أحد مستشفيات جنوب الصحراء فأجبتها مازحاً، "نحن بخير، وليس لنا إلا ولدان"، كادت تمزق ثيابها، وتجز شعرها، ثم أجابتني بعصبية بدأت تفتر فتوراً تنازلياً كلما زادت استرسالاً في حديثها: "ما كنت أحسبك مغفلاً إلى هذا المستوى، ما أبعد السوق التي سافر إليها عقلك، كنت أحسب أني أتحدث مع زوج مثقف يفهمني بالإشارة، كنت أعتقد أن الواحد منا، بعد كل عشرة العمر هذه، لم يعد في حاجة إلى التصريح من الآخر، وإلا استمرت علاقتنا الزوجية التي لاقينا من أجلها الأمرين في تصدع دائم،... ليس قصدي مادياً إطلاقاً، ولو شئت لحصلت من الوالي على شقة في أية عمارة فارغة وفتحت عيادة يُدر علي يوم واحد أو يومان ما أتقاضاه شهرياً في هذا المستشفى، يجب أن تجعل في بالك بأن المسألة ليست مسألة فلوس،.... ألا ترى معظم الأطباء، ولاسيما المختصون، يعزفون عن العمل في صحرائنا العزيزة؟... أجل، يُخْبَل، ويُجَنُّ بها الكل لجمالها وروعة كثبانها وذهبية رمالها، وطيبة وكرم قطانها، .... لكن هل عرفت أو سمعت طبيباً أو أستاذاً، أو حتى موظفاً بسيطاً يفكر جاداً ليعمل يوماً في الصحراء؟ إنها صحراؤنا، أنسي هؤلاء تاريخهم القريب؟... لو أرادت ثورة أربع وخمسين أن تتساهل في ملف الصحراء، وتتسامح في حَفْنة رملية واحدة لعُجل باستقلال الشمال، ولكانت فاتورة الدماء الزكية أقل من مليون ونصف،...هناك أطفال يَضوَوْنَ وقد يموتون أحياناً بأتفه الأمراض التي غدت في علم الطب الحديث عادية وتقليدية، وهناك نساء حوامل كثيراً ما يمتن حتف أنفهن لولادة عسيرة أو تستدعي عملية جراحية دقيقة، وهناك من لم يعد يأمن نفسه حتى من لسع الأفاعي ولدغ العقارب،..."..

يصعب على امرئ مثلي في موقف كهذا أن يغير مجرى تفكير مفاجئ لا يمكن أن يبدر إلا من صوفي أو ولي صالح يريد أن ينقطع عن ملذات الدنيا ويكفر عن كل سيئة من سيئاته الماضية، إنها عشرة عمر، أعرف نورة معرفة جيدة، ومع ذلك في كل مرة أتصادم معها، ربما لتعارض المصالح أو لاختلاف العقول، ومع ذلك، فهي حين تظن نفسها أنها على حق أو سائرة في طريقه، عنيدة وعنيفة ومتصلبة في موقفها، لو لم يحدث ما حدث لي لما كانت الآن تتكلم معي، لكن الحق أقول، بقدر ما هي قاسية عنيفة إذا غضبت أو جرحت في عزتها وكرامتها رحيمة لطيفة إذا رضيت ولم تفهمك فهماً سيئاً،.. كثيراً ما نتشاجر ليلاً أو نهاراً لأبسط الأسباب، وقد نبقى أياماً لا تصالحنا إلا الظروف والمناسبات الإجبارية..

منذ أكثر من ثلاثة سنوات كانت في عز هدوئها وأوج نشوتها، أشارت إلي إشارة عابرة بأنها تهيء بحثاً أكاديمياً بعنوان "أطباء بلا حدود"، وبدا لي منذ تلك الفترة أنها لا تزيد كل يوم إلا إعجاباً بهذه الهيئة وبمرور الأيام صرت أفهم من سياق كلامها أنها ترغب في أن تكون عضوة نشيطةً مستقبلاً فيها.

لم أعد أبدي عواطفي الحقيقية لنورة بعد مرور أعوام على زواجنا الذي ما كان ليتحقق لولا صمودنا النضالي، هل أصبحت غيوراً منها أم عليها؟ كل ما زلت أذكره أن أنانية بلدية تقليدية ما تملكتني،.. كل عربي يود لو يكون حاكماً، لا بد أن يحكم أحداً ما،.. لكن نورة ليست من النساء اللواتي يقبلن أن يكن فريسةً مستساغة لتعويض ملك استعصى على رجل عربي، ليست نورة من هذا الصنف المستسلم من النساء، أنتم لا تعرفونها، هي امرأة حديدية، ذات شخصية قوية، الكل في العائلة وموقع عملها يتودد إليها، ويود لو أن نورة تتجاذب معه بعضاً من أطراف الأحاديث.

في عائلتنا التي انطلقت في تحصيلها من ثقافة نقلية وعقلية أكثر من شقي واحد يحمل لقب "دكتور"، غير أن نورة تظل الدكتورة الوحيدة التي تستحق هذا اللقب، ما دام الواحد من كل هؤلاء "الدكاترة" الأشقياء لا يستطيع أن يَخِزّ مريضاً غرزة واحدة، أليس هؤلاء "الدكاترة" المزعومون أقل مستوى من ممرض؟، لكي تكون دكتوراً غير مزيف هنا يجب أن تكون طبيباً، وإلا عرّضت متاعب وحصاد سنيك الطويلة إلى غمز من هذا، ولمز من تلك، ... حتى سي علي يحظى عند الناس حظوة أسمى منزلة، وأرفع شاناً من هؤلاء البؤساء، كيف لا يكون الأمر

كذلك وهو أشفى ما عجز عن علاجه حتى طبيب نفساني؟، ثم من يحل العريس "المربوط" ليلة زفافه؟ من يحصن ويقي الفتاة البكر من الاغتصاب؟ من يحصن ديار العائلات الثرية من نهب السراق؟ من هذا الذي يحمي الفدادين والحقول والبساتين وما أنبتته الأرض من كل زوج بهيج من "الزاوش" العائد أسراباً أسراباً من جنوب أجدب طاوياً عاصب البطن مرملاً؟ من يعلم صبية الحي القرآن؟ من يهدي الناس إلى الحلال ويجنبهم الوقوع في الحرام؟ من يوزع تركات المغفور لهم؟ من يطرد الجان الذي "يسكن" الإنسان؟ من يستنجد به لاستخراج الكنوز المحروسة من الأرواح؟ من يفتح "لَكْتابْ" لإطلاع فضولي أو فضوليّة بما يخفيهما لهما عالم الغيب من مسار أو مضار؟.. من يقوم بكل هذا؟ سي علي أم هؤلاء "الدكاترة" البؤساء أم حتى الأطباء بلا حدود؟.. الناس سئموا الجمال وعلم الخيال، والبكاء على الديار والوقوف على الأطلال،.. شيء رديء ملموس أفضل مليون مرة من إبداع"، ولو جيداً، مستوحى من عالم الخيال، الفرد الصالح الفالح موزون وزناً قياسياً بالمليمتر، بما يملك، بما يرضى عنه ويقلد من مناصب تعود على كل انتهازي يحسن التلونات الظرفية بفوائد جمة،... لا تهمه زوجه، أخته، حتى أمه.. المهم أن يقدم للمحظوظ الجديد تهنئته وولاءه، ويقلب للمكدود بين عشية وضحاها ظهر مجنه، ليس بحاجة إلى سابق إنذار،.. حاشا لله أن تكون نورة ولا حتى سي علي من هؤلاء النماذج البشرية، لكن وظيفة كل منهما ملموسة لا ينكر أحد مردودها.

←←

المقطع الثالث

ما كان سمير ليتوقع يوماً من نورة أن تعرض عليه أمراً أكثر مرارة ودهشة مما عرضت عليه، أن تذهب إلى العمل في الصحراء، ولربما في أقصى نقطة جنوبية، هل بادرته نورة الطبيبة التي يشهد لها الجميع بكفاءتها، وهي في كامل قواها النفسية والعقلية أم أن الأمر لا يعدو أن يكون ارتعاشة نسوية عاطفية إشفاقاً على ما يتعرض له أطفال أبرياء، ونساء حوامل، ورجال ملدوغون وملسوعون، من مخاطر وحوادث يومية بسبب نقص الكفاءات الطبية؟ إن تفكيراً في عمل مثل هذا أكثر من أن يكون عناداً أو شفقة. هل نسيت أم تناست أن الصحراء التي تحلم بها قارة مهجورة، وأن حياة شماليةٍ كنورة لا تنفك تنعم بجمال أخاذ، وبنية أنثوية جذابة تستهوي الرهبان والأئمة، حماقة وجنون؟.. هل يتحالف معه سي علي ليجدول لها "يَقْشة"[1] عسى أن ترعوي عن غوايتها؟

سمير مقتنع بأن نورة ليست على صواب فأية مصلحة أو فائدة يجنيها من الحماقات التي تفكر فيها؟ هو لم ينس لها إطلاقاً تمردها وتضحيتها وإلا لما تقارنا وألفا هذا العش الصغير السعيد؟ هو يعلم أن قبوله أو اعتراضه بالنسبة لنورة سيان، ليس فقط لأن نورة صلدة وقوية الشخصية أو لها أبعاد أخرى غير التي أفضت بها، ولكن سميراً نفسه متعلق بها على الرغم من سنه المتقدم، أصبح الرجل يخجل حتى من مواجهة نظرتها الحادة إليه، وغدا يجاملها حتى فيما لا يرضاه من بعض تصرفاتها، مضى ذلك الوقت الذي كان فيه سمير يقتفي كل حركة من حركاتها غيرة ورغبة في الهيمنة الرجولية عليها. لكن لم هذا كله لم تعد

---

[1] *حجاب أو رقية*

نورة تلك الفتاة الساذجة الخالية من التجارب، فهي ذات ثقة عمياء بسلوكاتها خارج حياتها الزوجية، وفلسفتها نحو الناس أن لكل شيء في هذه الدنيا خطين لا ثالث لهما: أحمر وأخضر، وقوتها الخلاقة تكمن في ذكائها وحذقها في التعامل معهما.

لم يرفع سمير إلى جوفه لقمة واحدة مما تركت له نورة على المائدة التي غادرتها على عجل إلى المستشفى،.. كان كلما رمق أحداً من ولديه متجهاً قربه تكلف لقمة أو لقمتين، وبقي المشهد نفسه يتكرر معه إلى أن أتى على الصحن كله دون أن يحس بلذة ما أكل،..

رباه! سأكون أنا مع هذين الولدين البريئين أول ضحية لمغامرتها في تلك المفاوز التي لا أبعاد لها، هي لا تختلف عن ذلك العالم الذي تراءى لي اختلافاً كبيراً بل هي أدهى منه وأمر، فذلك عالم أشباح وزيف، وهي عالم حقيقة، ليت هذه المجاهل كانت بحاراً من الظلمات لها في النهاية شاطئ أمان، لكنها بحار وهاجة، شمسها لافحة، وكثبانها المتوّهة ظلمات بعضها فوق بعض، وربواتها الرملية المتصل بعضها ببعض غير متمايزة، ريحها صرصر عاتية لن تجدي معها هذه النظارة الواقية من شمس الشمال الكسولة،.. أقصى الجنوب! بجوار مالي والنيجر أو حتى موريتانيا غربا وليبيا شرقاً، القحط والجدب، والحرمان يسود هذه القارة من الرمال.

هل يستطيع أحد غير الفقيه أن يجرؤ على مفاتحتها، لعلها تغير رأيها أو تتريث لبعض الوقت على الأقل؟ لكن كيف أجعل هذا السيد يتكلم؟ ذهبت عني كل الحيل والمهارات ربما لم يُسَمّ فقيهاً عبثاً، ينجز يومياً وحتى في جزء كبير من الليل الأعاجيب، ويحكي الناس عنه أحداثاً ومغامرات، ولكنه لا يكاد يظهر عليه كلام عن نفسه ولا عن أفعاله مع الآخرين، كأن موضوع نورة قد بُتّ فيه نهائياً، وأن الكلام انتهى هنا.

أيكون ذلك الحلم الممزوج بكثير من الروع وقليل من الروعة محقاً فيما استحضر لي من ذكريات تاريخية بعيدة لا تخلو كلها من تأملات وآهات حلوة جميلة؟ ما ندمت قبل هذا اليوم كثير ندم على هجرة نعاجي، وهي تثغو ثغواً رخيماً، وأكثر ما يكون منظرها بديعاً ورشيقاً يشد إليه النفوس شداً إذا أقبل الأصيل وحانت العودة، تراها تراقص حملانها وهي قنوعة راضية، ما أسفت قبل هذا اليوم عظيم أسف على معاداة معيزي التي كانت أكثر إزعاجاً لي من قطيع الغنم،

ولكنها على علاتها لم تكن أقل حباً عندنا فشعرها تنسج منه التلاليس لنقل الحبوب على البغال، يصنع بجلودها المزايد والمزاود، وحتى البنادير والغرابيل، حليبها أغزر وألذ من حليب النعاج، وهي ليست دونها بهاء وجمالاً إذا لاعبت جداءها حيناً، أو تسلقت جُرُفاً وصخوراً، لا تقدر عليها النعاج، حيناً آخر، وهي فوق هذا وذاك أشد منعة على الذئاب من النعاج، وأكثرها حساً وفطنة وذكاء.

أجل، ندمت، ولات حين ندم، على التنكر المر إلى مزماري "الخماسي" الذي كانت أصداؤه تسمع الصم، وتوقظ الموتى، كانت الأودية والربى والسهوب والجبال المتقابلة تسحر به فتتسابق إلى تقليد زمره، فتارة ترققه، وتارة أخرى تفخمه، ثم توزعه في الهواء الطلق من كل الجهات، فتُجن لسماعه الراعيات المراهقات، وتطرب له القطعان والطيور والنّعام، وتشنف لصداه حتى الذئاب الرابضة المترصدة، والدواب الناعرة،.. ألف مزْمارَهُ الذي طالما كان يخترق تلك الأجواء الهادئة كلّ الأصناف من الحيوانات والأنعام والهوام والبشر،.. القوى أو "لَحْرامي" في آخر المطاف هو الذي يسود ويعيش،.. قانون الطبيعة، لا خوف من حية رقشاء سمها نافع ولا من عقرب صفراء لدغها زعاف.

بعد ما صدمتني نورة بنيتها تلك اتضح لي فعلاً أن ما تراءى لي في منامي لم يكن كله هذراً وهذياناً، لم يخل كل الخلو من العبر، فرطت في كل شيء مهم ظللت أشب معه شبيبة، اغرتني المدرسة التي كانت حتى عهد قريب لا تمثل لواحد منا حتى فيما يراه النائم، كنا نحلم في عالم اللاشعور بكل شيء، نرى السجون، التعذيب، الجنائز، الجنة، النار، نكيراً ومنكراً، الاستعباد، الحقرة،.. إلا شيئاً ما اسمه مدرسة لعلها لم تكن قد ضمت بعد إلى قاموس الأحلام،... وإذا ما كنت ولجت بتلك السرعة المدرسة، وألقيت كل ما سبق ورائي ظهرياً فربما لم يكن الذنب ذنبي، لأن الحرية في بداية إشراق عهدها كانت تساوي المدرسة، اعذروني إذا لم أكن فطناً كيساً للتمييز بينهما.

وهل مثل هذه الهراءات تجديه نفعاً اليوم أو غداً أمام نورة وقد أصبح شبه طفل معلق بأهدابها؟ ما أكثر ما حكى وحكى لها مثل هذه السخافات التي كانت في بداية عهدها به، وقبل أن يبني عليها، تستلذه وتستزيده منها! لم يعودا اليوم مراهقين متعاشقين،.. وهل صار لنورة وقت ضائع حتى تسمع له هذه الترهات؟ كلما عادت من المستشفى ساح بصرها في ملفات طبية، وساح عقلها في مجلات ومعاجم علمية بشتى اللغات العالمية...

نورة، في هذه المرة، على غير دأبها، لم تتجه إلى التحديق في رفوف مكتبتها الصغيرة، واكتفت بالانسراح فوق سريرها الذي لا يثبت عندها على حال واحدة، ليست عصبية ولا مزاجية،.. يبدو أن السيدة مرهقة، أحياناً تتم ولادة غير طبيعية بعملية جراحية دقيقة ومعقدة، ما أكثر ما ينصح لبعض السيدات بالتوقف عن التفريخ، ولكن لا سلطان لهن على جهل أزواجهن الذين لا يفهمون ويندمون إلا إذا أرملوا وصار أبناؤهم مشردين.

أيجد أحد في نفسه شيئاً من الشجاعة، وفي الحالة التي تعود فيها السيدة متعبة، ليراجعها في موضوع أحمق مثل هذا؟ ألم يقولوا: "في التأني.."؟ و"الصباح رباح". ومن يدري؟ لعلها تكون قد استشارت أحداً ممن تثق فيهم من لداتها، استطاع أن يؤثر عليها بطريقة ما، فالصديق عادة ما يؤثر على المرء أكثر من الزوج، يستحيل على طبيب مثل سي البشير ألا يؤثر عليها، فهي تثق فيه ثقة عمياء، على الرغم من تباين اختصاصهما.

حياها بحرارة وشوق، فردت عليه التحية بحركة يصحبها فتور، وبدل أن تتفاجأ به مثلما توقعت نورة، بادرته إلى أخذ زمام الحديث: "إنها عشرة عمر، أليست عشرين سنة.. لا شك أن نورة تصرفت تصرفاً أحمق يوم أقلعت عن الولادة مثلها مثل بناء يبني للناس أجمل الفيلات، ويبيت في براكة أو حمام.. أن تقعد امرأة عن الحيض، وهي لا تبرح في أوج أنوثتها، وكامل صحتها، ظاهرة شاذة في ريفنا وحضرنا،.. مسكينة ابنتي! ها هي تعالج لعلها ترزق مولود، جلبت لها بعض الأعشاب من الريف القبائلي، نصحت لها أكثر من مرة بألا تزدرد تلك الأقراص الملعونة، أنت تذكر أنها في العشرية التي تسمونها سوداء كانت تشتريها من الخارج بالدوفيز.. آه! رحم الله زماناً كانت لنا أساليبنا في منع الحمل متى شئنا لكن أنّى لامرأتك أن تنصت إلى نصيحتي التي كانت تجعلها تستغرق في الضحك، وهي فنانة في فن التوليد؟.. وربما "ضربها" البرد، الجو عندكم في تلمسان بارد ومثلج في فصل الشتاء، حسدها الناس، كانت عين أمك دائماً وراءها نسيت؟ أهلك وأقاربك سببوا لها كثيراً من المشاكل، حتى أخوك ذلك الأهوج، لارده الله، حاول غير ما مرة أن يقنعها وينصحها بالبقاء في البيت، مغفل يحلم ببناء مستشفيات للنساء وأخرى للرجال، كما كان عقله صغيراً وأين يعالج أحد الجنسين ريثما يشيد المستشفى الثاني؟ مستشفيات وضعت أحجارها الأساسية منذ عشرية وعشريتين ولم تر النور، ولم لا يحلم بشق طرقات، وصنع طائرات، وحافلات، وقطارات،.. للإناث وأخرى للذكور؟ كنت متقاعساً لم تدافع دفاع ذلك الزوج الذي

يحب امرأته، هو يضرب أخماساً لأسداس، وأنت تنظر إليه وكأنك كنت تقتنع بخطابه، ألم يكد يرغمها على ارتداء الحجاب، وكأن بنتي كانت تخرج كاسية عارية؟ ما كان أبلهه! كأن كل شيء في هذا البلد فردوس، ولم يبق إلا الجلباب الذي صارت كثير من الفتيات يرتدينه نفاقاً ورهباً لا رغباً، وأوجدت فيه بعض الموظفات ضالتهن وراحتهن منذ بداية العشرية التي تسمونها حمراء، أم تحسب أن مرتبها الضئيل يكفيها للتجميل وتسريح الشعر واقتناء بدلة تساوي راتبها؟ لم يبق إلا الجلباب والحائك والخمار.. أليس في هذا البلد أثرياء لا يزكون أموالهم؟ أين نحن من عهد الصديق؟ أليس في هذا البلد من وهب صحة فيل، ورزق أموال قارون، وهو صرورة؟ أليس في هذا العالم من يعبد الله على حرف؟.. كيف يؤمنون.. ويكفرون؟ يهتم الناس عندنا بالفروع أكثر من الأصول؟ من قام بالأصول لن يكون أحوج كثيراً إلى الفروع،.. وطننا في داهية، كل من سمع حرفاً انبرى للناس يحل لهم هذا ويحرم عليهم ذاك،.. إنها فتنة حمراء".

حمداً لك يا رب، المطار لا يبعد عن المدينة إلا بربع ساعة وإلا فماذا، لو أن الرحلة ألغيت؟ لكن من أين لحماتي منيرة كل هذه الأفكار؟ أعرف أنها تهجي نصوصاً ورسائل بشيء من الصعوبة، كل من جاور وعاشر "معمرين" لا يعدم حظاً من الفرنسية.. كلما زادت الساعات مروراً، إلا وقد زدت أكثر إدراكاً بأن ما تراءى لي كان صائباً، إذ وصفني بالبلاهة والغفلة، وفاته شيء آخر أو تجاهله بأني مصاب أيضاً بمرض النسيان،.. آه! النسيان، ألم يكن حمئي، رحمه الله، إلا "دراراً" يعلم الذّراريّ في إحدى القرى القبائلية شيئاً من القرآن إلى عام سبعة وخمسين؟ كم كان حزيناً، والمدافع تَدُك الدور والمسجد الذي ظل لازا به ردحاً من الزمن دكاً عشوائياً وهو يظعن بما خف وزنه مع القرويين الظاعنين، لم تنس نورة كل شيء لا تبرح تلهج وتبدي إعجاباً وفخراً بالأيام التي كانت تصحب فيها أباها إلى الكتاب، بعد هجرة عائلتها إلى باب الواد صارت تتفوق على أقرانها في العربية تفوقاً جر عليها حقداً دفيناً من إداريين، وعجباً محيراً من تلاميذ جزائريين، لم يكن حمئى مثل سي علي تفقهاً وتبحراً في علوم اللغة والدين، ولكنه لم يكن قليل الإلمام بالأفكار التي دوخت بها منيرة رأسي.

منيرة هي دائماً هكذا، كلما تعلق الأمر بشيء ما تقدره مؤذياً أو يمس نورة بسوء.. كأن زواجي بها كان السبب الوحيد في كل ما حدث أو قد يحدث لنورة التي قدمت رجلاً وأخرت أخرى ألف مرة قبل أن تأخذ القرار المصيري، حاولت أن تتردد لعل الأيام المتناسلة تغير من تقاليد الناس شيئاً، طلبت مني المزيد من

التضحية بالصبر شفقة على أهلها، كلما كانت الأيام تمر حبلى ثقيلة بالمجهول كنت أزداد وسواساً وقلقاً وارتياباً، ليس لي أي ضمان، الخطاب لا يرحمون ولا يتعامون عن طبيبة جميلة في قد وسن نورة أم تحسب أن الحب المتبادل في حالة مثل حالتي المعقدة صك مؤشر على بياض؟

←←

المقطع الرابع

هل كانت الختنة منصفة سميراً؟ ربما كان من حسن حظه وجود رحلة من الطيران على خط تلمسان، وإلا فماذا كان يسمع لو استقبلها من وهران؟ كان الرجل الذي لا يبرح منفزعاً إلى حد ما منتظراً من منيرة أن تسأله عن الحدث العظيم، عن الجان الذي "سكنه" وعن معجزة سي علي الذي طرده، وعن أحوال العائلة إلا صهرتها طبعاً، كل شيء لم يرد في ثرثرتها التي استثقلها، تمنى لو أن المسافة القصيرة اختصرت في أمتار والدقائق القليلة آلت إلى ثوانٍ.

لم يتوان سمير قط في حماية زوجته يوم تعرضت لشيء ما من نزوات أخيه الذي كانت لهجته هادئة صادقة، هو شاب مهندس فلاحي لا يفقه في أمور الدين إلا ما قرع سمعه من بعض الخطب والأحاديث التي كانت تلهب عقول الشباب، كأنها أوامر ونواه تنزل وحياً على أولئك الخطباء المتحمسين لأول وهلة، أو بعث بها جبريل، بعد أربعة عشر قرناً، من جديد.

حاول سمير الذي لا يريد أن يخوض في مسائل الفقه والشريعة كثيراً أن يجادل أخاه عمر بالتي هي أحسن، أراد هذا أن يخاطبه بنصوص عميقة المفاهيم، بينما كان ذاك يحاجه بتوجيهات أخرى رسخت في عقله وطبعت على قلبه،.. أما نورة التي أقدمت إلى تدلية وإرخاء تنورتها في عز العشرية الحمراء، فلم يكن ذلك منها جبناً ولا اقتناعاً بما كان يتلفظ به عمر من أفكار طارئة، قدمت على ذلك حتى لا تحدث فتنة ولا شدخاً بين الشقيقين.. أما عمر فلم يكن بوسعه أن يكره نورة على أمر لا تقتنع هي به، كان أبوها فقيهاً محافظاً، تقياً ورعاً، ولم يجبرها يوماً على ذلك، فكيف بهذا الشاب الذي صار يجترئ بترديد ما قرع سمعه

من خطب المساجد وأحاديث المقاهي، وكلام الساحات، وشجون البيوتات،..؟ والواقع أن عمر كان يحبها حباً كثيراً، ويحترمها احتراماً شديداً، وربما لاطفها: "في أول يوم بنى عليك سمير، تمنيت لو كنت فتاة.."

كان الشاب عمر الذي لا يعدم مع ذلك حصافة وذكاء يعلم أن زوج أخيه سيدة محافظة متجددة، تنهل من كل الورود المتفتحة دون أن تقع طريدة أو فريسة لوردة بعينها، تحب الورد المزهرة كلها دون أن تغري أسيرة بواحدة منها،.. أين هي من الشاب عمر الذي أعجب بوردة واحدة، وهو لا يزال ابن الثالثة والعشرين ربيعاً؟.. بهذا تكاملت نورة مع سمير، تحاك العلم بالخيال تماست الدكتورة الحقيقة بـ "الدكتور" المزيف، تعانقت المرأة الوقور الجسور بالرجل المغضوب عليه المقبل نادراً والمدبر غالباً في كل خطوة مصيرية وقت حسمها قصير،.. تكاد نورة تنتهي إجراءاتها، وهو لا ينفك غير مصدق، وكأن لديه خاتم سليمان أو حتى بركة سي علي لتؤثر على توجهها الذي ظل حلماً غريباً يراودها، ربما فيما مضى كان هزلاً يدعو إلى الضحك..

كانت التلميذات يخلون بأنفسهن، يبادرن إلى المزاح وطرد الملل بقراءة المستقبل،.. شريك العمر وشكله، .. العمل المفضل،.. الأمل المعلق الطويل،.. يدق الجرس فتتبخر الأحلام، .. لكن بعد سنوات، ها هو الجرس يدق، وهاذي نورة يراودها الحلم من جديد.

لسمير رؤية أخرى تختلف اختلافاً كثيراً عن رؤية الشاب أخيه، وحلم آخر يتباين تبايناً عظيماً عن حلم زوجته، قد يتشابه الناس في كل شيء إلا في الأحلام،.. سمير هذا الرجل الكهل عاش أحداثاً مخضرمة شتى، وهو غلام يافع،.. لم يخلق الله نشاطاً تحت السماء ولا فوق الأرض إلا جربه ومارسه، فهو فلاح صغير، اليوم، وتاجر مغامر غداً وصياد، وراع، ومربي حيوانات، وناطور حقول وغلات أرض من الأرانب والقنافذ، والذئاب، و"الزواش" .. في أيامات أخرى. ألم يكن حظر التجول في أعوام الثورة كلما دنت الشمس من الغروب إلا نعمة وراحة له.؟

ما أكثر ما كانت بعض العائلات التي لم ترزق غير البنات تستأجره لسقي المياه من آبار نائية زلالية مقابل أجر زهيد! العسكر، ولا سيما اللفيف الأجنبي الذي يسميه الناس "لا ليجو"، لا يرحم أرامل ولا أيامي ولا أبكارا، .. كالجراد المنتشر، إذا خرج من ثكنته لتمشيط قرية أو منطقة اغتصبت كل ذات أنثى في

طريقه، .. لم يكن هؤلاء ولا أولئك في ديارهن المتناثرة في أودية وسهول والمترامية الأطراف فوق ربوات وقمم جبلية أقل خطورة ممن يغادرن دورهن لم يكن يردن أن يكن صيداً مستساغاً ذلولاً لهؤلاء المتوحشين المفسدين في الأرض.. غير أن سميراً الغلام الذي لم يكن يحفل باستنطاق "لاليجو" ولا حتى بركلاته وصفعاته أحياناً، وبطلقات نارية تدويّ مزغردة فوق رأسه أحياناً أخرى، كان يرتزق من وراء وحشية "لاليجو"،.. فهو لا يجد تفسيراً لظواهر ظلت بمرور الوقت تخالجه، ألا يمكن للناس أن يشتركوا في السعادة والسلم والشبع،.. إلا إذا شقي فريق آخر منهم وحورب وجُوع؟.. إلى أن يأتي اليوم الذي ينبري له من يجيب على تساؤله، فإن عائلة فلاحية ثرية تملك مطامير قمحاً وشعيراً وقطعاناً وبساتين،.. كانت تمنحه قطعة من النقود يلاعبها ويراقصها بإبهامه وسبابته ليل نهار قبل أن يضطر إلى إنفاقها، وعائلة أخرى متوسطة الحال تهبه قميصاً مرقعاً أو سروالاً خلقاً أو نعلاً مسموراً، وعائلة لا تملك قوت إسبوع ربما قاسمته زاد عشائها،.. هل كان سمير قنوعاً بما كان يتفضل به عليه أم هو الزهد الذي كان يغمر النفوس ويسدها إبان ثورة التحرير ولم يكن هذا الغلام إلا مظهراً بريئاً منها؟

←←

المقطع الخامس

حسبوا أن التعددية نعمة،.. خدعوا مرتين، مرة بالحرية التي خالوها جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها متكئين على الأرائك، ومرة بما آل إليه حالهم من تفكير ممزق، وما وصلوا إليه من فقر مدقع،.. رضعوا زهاء ربع قرن من فكر واحد، وتصور واحد وظلوا راضين بسياسة العصا الغليظة الواحدة، .. أيديهم أوكت، وأفواههم نفخت.. وها هم اليوم يغرقون لم يقبلوا شيئاً لم يرضوا بأحد،.. لا يريدون أن يسودهم آدمي واحد، لم يقبلوا فينيقياً، ولا رومانياً ولا ونداليا ولا بيزنطياً، ولا عربياً، ولا أمازيغياً،.. لم يقبلوا حتى أنفسهم، فأني لهم اليوم أو غداً أن يرضوا بسيادة منبثقة من التعددية سواء كانت نعمة أم نقمة؟.. إنهم سياسة وديمقراطية، والشعب المسكين سياسة وديمقراطية أخرى، ساسة يغازلونه بنظريات اقتصادية وثقافية واجتماعية مستوردة أثبتت إخفاقها في مسقط رأسها، وساسة يراهنون بآهات مثالية من أعمال السلف الصالح الخالدة، وغيرهم ينفذون من أقطار السموات والأرض لاكتشاف قارات فلكية وآخرون يلهونه بصندوق النقد الدولي، فيمنونه الأماني الحلوة في الرفاهية والحياة الفضلى، وهم يغلقون المعامل ويطردون عمالها، ويجدّون في تصفية ديون مؤسسات موروثة عن عشريات تفننوا في استعارة أوصاف رهيبة لها، بصرف ملايير الدولارات عليها هباء منثوراً، وبخصخصة مؤسسات أخرى مفلسة قبل بداية إنتاجها،.. التعددية، الديمقراطية، حرية التعبير حقوق الإنسان، اقتصاد السوق، الخصخصة، الإرهاب.. كلمات كلها غدت منذ الميلاد الأحمر للعشرية الرابعة أسماء مجانية.

نهبوا الأخضر واليابس، البقرة المدرار هجرت في الغابة فريسة محتملة لذئاب ضارية طاوية، لم يبق أي شيء، الله غالب، الدولة "ما تعطيش"، الدولة "ما

تبنـيش" الخزينـة العموميـة فارغـة، علـى النـاس مـن الآن أن يتهيئـوا لخبـز مـن الحجر،.. كـأنهم يبشرونهم بعشرية خامسـة لـم يتفق أولياؤها الشرعيون بعد علـى فبركـة اسـم لهـا يليـق بمقامهـا، لـن تكـون علـى أي حـال أقـل تعاسـة وغرابـة مـن حميماتها السابقة.

ألم يكن الشاب عمر الذي ذكرته منيرة ذكراً غير رحيم إلا "خذ وهات" من بضاعة العشريات الثلاث؟ جادلهُ سمير بعقلية هي بالنسبة إليه عقلية موازية ليس للشاب إلا تكوين واحد بقدر ما هو منبثق من التعددية مطبوع بطابع أحادي كأنه وحي إلهي لا يقبل المساومة والجدل.

شتان ما بين الأخوين، سمير وإن تربى في أحضان الحرمان والإهمال فإن اجتهاده العصامي الذي لفت إليه كل الأنظار، ومعرفته لنورة الجامعية المحافظة المتعصرنة كان لهما أثر جلي في مسيرة شبابه المتأخر، وتفتحه على الثقافات الأخرى، عيبه الوحيد أنه إذا جادل أحداً يُعترى بهوس التفكير العميق، والتحليق البعيد، وشاب لا يحمل تداخل الثقافات والذهنيات، مثل عمر لا يكاد يعترف إلا بما هو ملموس ومنصوص عليه في قراءة موجهة توجيهاً مقاسياً مغلقاً من هنا اختلف الثاني مع الأول، من حيث أراد الأول أن يأتلف مع الثاني.

لسمير رؤية فلسفية تجاه ثقافة الآخر، كانت نورة أول من أُعجب بها، .. البحث عن ثقافة ديناميكية يصبح معها المتقبل لثقافة متناقضة آلياً.. لا يكتفي بزجر الناس عن الموبقات بلغة العقاب التقليدية،.. أن يُكشف للمتقبل كشفاً شفافاً ما عند الغازي القديم بأسلوب جديد لم يعد ممكناً مقاومته وحسب بالوسائل المبتذلة.. أن يُعرّى له عن كل شيء قبيحاً دنيئاً كان أم حسناً صالحا.

"ألم يكن الواحد من الفتيان إذا رأى علجة فاتنة لا ترتدي غير صدرية حلمتا ثدييها بارزتان، وسروالاً قصيراً لا يكاد يخفي عورتها قيل له: هي "قاورية" ولا تهيج فيه أية غريزة، حتى كأنما يرى لوحة زيتية لا آدمية تتحرك، وكانت الواحدة من فتياتنا إذا ما قضي لها أن ترى علجاً لا يرتدي غير سروال قصير، كان يقال لها: هذا "قاوري" ولا يُظن أنها كانت تثار في حساسيتها الجنسية.

ألا ترى في كل مكان نساء جميلات سواء كن مستورات من أخماص أقدامهن إلى أشعارهن أم دون ذلك ستراً فإنك بشر ضعيف طماع، قد تعجب بواحدة أو أكثر منهن، وتحب أن تكون زوجتك وبنتك واختك مثلهن جمالاً؟ لكن هل يحق لك أن تسرح نظرك فيما لا حق لك فيه؟ ألا تشاهد آلاف السيارات

والفيلات وآلاف الأشياء البراقة المغرية، وقد يكون ذلك كله أفضل وأجمل مما تملك يداك، فهل يحق لك أن تعتدي أو تطمع في شيء من ذلك؟. لو كان لكل راع من رعاة ما في رقبتهم من أمانات خطوط حمراء بين ما يحق لهم وما لا يحق، لكانت الخزائن عامرة بكنوز "علي بابا" وآلاف الهكتارات العقارية موفورة، وعشرات الآلاف من الشقق غير مستولى عليها بطرق... وهي غير مأهولة...".

هذه الرؤى التي ظل سمير يرددها ويحلم بها من أجل تطبيقها في كون لم يخلق بعد، لم تكن لتقرع سمع الشاب عمر إلا قرعاً سطحياً، لأنه كان مغزواً في ذهنه باقتناعات أخرى، أصلتها فيه خطب المنابر والصحف التي صارت كالنمل كثرة، والاجتماعات السياسية،... حانت الليلة المشؤومة،... كل جهة تتبرأ منها وتندد بها،... منيرة لم ترحمه ولا رحمت أمه، أليس لها كسائر البشر "كبدة"؟ هي لا تتمنى عودته،... كلما تذكرته العجوز أذرفت دموعاً فوارة غلاظاً وزالت شهيتها لعدة ساعات وربما أيام... الوحيدة التي لم تأل جهداً ولا ادخرت وسعاً في استقصاء خبره نورة، لم تحفل بتحذير أمها، طرقت أبواب كل الجهات الممكنة والمشبوهة،... بقيت العجوز التي أصبحت في حالة يرثى لها تتخيل لمدة ستة أشهر وزيادة أن ولدها سيطرق في إحدى الليالي الشتوية باب دارها.... لم تيأس بعد، لا تزال تنتظر، مادامت باب الوئام المدني...

ربما ستموت منيرة، وغيظها كامن في صدرها، لماذا تحقد على هذه العجوز؟ ألا يكفيها هذيانها بولدها؟ ليست منيرة وحدها التي عارضت زواج ابنتها عملاً بالعادات القبائلية، في تلمسان أيضاً لا يتم قران مرضي عنه ومبارك إلا بين تلمساني وتلمسانية، سمير ونورة كلاهما تمرد على أهله، والآن كل شيء هدأ وسلّم بالأمر الواقع إلا منيرة التي لم يعد سمير يحفل بتصرفاتها كثيراً، ونورة غدت لا تحسب لهذا الموضوع بشأن حماتها أي حساب، ولكن الكنة والحماة كلما تماستا تماساً فوق إرادتهما تظلان واجمتين لا تتجاذبان طرف أي حديث إذا لم يَثْلِثْهُما جليس ثالث.

قبل أن تفكر نورة فيما فكرت فيه لم يغب عن بالها إطلاقاً ما سيسبب قرارها النهائي من كآبة وعذاب لحماتها، لكن ليس من عادة نورة الحصيفة الرشيدة أن تقف أمام إرادة سمير متى شاء أن يزورها، لكن هل الأمر يتعلق بإحدى ضواحي تلمسان أم...؟. وهي سيكون في استطاعة العجوز أن تغامر بجسمها الضاوي لتصحبهم إلى الصحراء؟.

يعلم سمير المسالم أو المسلِّم أمره لِلّه أنه لا يملك أدنى قدر من الشجاعة الأدبية أو الرجولة للوقوف في وجه قرار نورة، ما عرف من صفات قاسية من الصحراء التي سماها بحاراً رملية أو قارة قائمة بذاتها، وما قرأ عنها من قصص خيالية مرعبة وما كسبه من معلومات جمالية وهو يحفظ المعلقات والمذهبات ودواوين الشعر الجاهلي، يجعله من الآن يرتجف لشدة هول ما يتدوَّمه من رسكلة جديدة كل الجدة.

الأيام تمر سريعة، ونورة لا تبالي بما يساور زوجها من أوهام ربما تكون نتيجة لضغوطاته النفسية الخارجية والداخلية، ولعلها من بنات نسج خياله المفرط في غد مجهول، نورة طبيبة في الشمال مثلما هي طبيبة في الجنوب،... لكن سميراً المولع بفلسفة الأشياء والأفكار له نظرات أخرى، البوح بها يعد تنغيصاً لرغبة نورة، وهذا مالا يريده سمير أو ليست له إرادة في ذلك، فالصحراء بالنسبة لشمالي عقاب صوبت الطبيعة سهمه اتجاه من رابطوا وصمدوا فيها وكأنهم تحدوا قساوتها وفظاظتها، وإلا فلم كلما أذنب شمالي أوسطا على الحقوق العامة أو الخاصة أو وجد في نفسه حظاً من الجرأة للتعبير عن مكنون نفسه أو معارضة الآخر،... إلا ونقل أو نفي إلى الصحراء؟

سبحان الله! كأن الاستعمار لم يُقَلِّد إلا فيما ترك وراءه من سيئات! كأن الصحراء ليست إلا مَوْألة لمغضوب عليه أو محكوم عليه بعقاب؟ ألم تغر السلطة المركزية بمضاعفة الصك لكل شمالي بائس إذا مارس عملاً في الجنوب؟ أما إذا اشرأب جنوبي بعنقه نحو الشمالي فهل يمنح فرصة لصك واحد؟ طبيعة الشمال طبيعة مسالمة، ليست موئلاً للعقوبات، وهي وناسها في وئام تحول إلى عهد أبدي،... ليس مهماً أن تتبدل السماء والأرض في لحظة واحدة.

←←

المقطع السادس

حسب الأبله أن الكلام قد انتهى، وكأننا به شرع يتأمل شخوصاً جدداً ليستعبدهم في جرائم ومحن جديدة، شخوصنا مزيفون بطبعهم، ليس بمقدرتهم أن يؤدوا وظائفَ تجاوزت في عالمهم درجة كل وصف وحقيقة،... هو الآن يبرم شاربيه زهواً وعتواً،... لم ينته الكلام بعد ، ولكنه مغفل لن يجديه اليوم صمت ولا تملص،... ما الذي أرغمه على الذهاب إلى تلك الوعدة الموسمية؟ أخذ درساً لن ينساه إذا فهمه وحفظه جيداً،... لن يحفظه، نراه يتحين الأيام لوعدات أخرى، ليس في حاجة إلى ذكرها، ورثوها أصاغر عن أكابر، يقدمون قرابين من كباش وعجول وتيوس لقبور بداخلها عظام رميمة، لا يعلمون أدنى علم ماذا فعل بأصحابها منكر ونكير، ولكنهم لا يجهلون أن الديدان التهمت ما كان يعتليها،... كلما غضبت عليهم السماء، وأقحطت أراضيهم، وبدأ الطاعون ينتشر بين مواشيهم، جادوا على هذه العظام "الراشية" بما بخلوا به في زكواتهم، هم هكذا وجدوا وسيلة لذيذة لوقاية نفوسهم من الشح، عصفوران بحجرة واحدة.

غبي ذلك الفقيهُ المعجبةُ نورة، التي لا تقل رونقاً وفتنة عن سارة، بِرُقاه وسحر تمائمه، ألم يؤدبه من هو أعلم منه: "من علق تميمة فلا أتم الله له"؟ سنرتاح من شروره الموروثة عن كهنة لا تاريخ لهم بعد حين،...

إنك لست فقط أبله، أكثر من ذلك، أتدري لماذا؟ جبان، متردد، تقدم خطوة، وتؤخر أخرى، لو كانت لك عين وراء جمجمتك لما خطوت خطوة واحدة إلى الأمام،... أكثر ما تكون حزماً وعزماً وإقْداماً عندما تخرق عالمنا، كل ما ينسب لك من "إبداع" بفضل شخوصه المساكين، أما أنت،...

يحسب ذلك الفقيه المزهو برقاه أن صيته الواسع في شرق بلاده وغربها سيرزقه منصباً يقتات به مع زوجه العاقر، في المرة الثانية لم يعرضوا عليه،... كان كلام أهل الحل والعقد معه واضحاً، اقترحوا عليه في عشريتكم الأولى أن يتقدم إلى مسابقة "الممرنين"،... أخذ صفراً في الهندسة والحساب،... عاد إلى أصله، ترك غُرَماءَه من بني جلدته، وولى شطر وجهه إلى مخلوقات أخرى لم تغصب الناس أرزاقهم، ولا بَخَسَتْهُم أشياءَهُم، يصب عليها جام غضبه مما لحقه من إهانات الشباب المتمدرس.

على الرغم من أنك انتهيت من تقليم أظافرك، اعترفت بإخفاقك في جعل هذا الغبي من سلالة عالمك يتكلم كأنك تريد أن تختفي قصداً مثل "الكتاب" الكبار حتى "يوسم إبداعك" بسمات شعرية تحمد لك، كان يجب ألا تفكر في هذا، عليك أن تقول، وعلى النقاد أن،... ولكنك جبان، والجبان الإبداعي لا ينال حظاً شعرياً من عالمنا،... كدت تطرق باب قيم الولي الصالح "سيدي بومدين" الذي كان لوالدك يد بيضاء عليه، لعله يفاتح الفقيه... هو الوحيد في نظرك، الذي يمكنه التأثير على نورة للعدول عن... أزفت الآزفة، أتدري ما قال لها؟.

"لست أفهم أولئك العباد من أهل البلد الذي يخشون صحراءنا، وهي مصدر إلهامنا، فيها شيطاننا وعبقرنا، وهي معين نعمتنا، ثمانية وتسعون في المائة من مداخيلنا، وهي منطلق هدايتنا،.... أعبثاً كانت آخر رسالة سماوية من الصحراء؟ لماذا هاجر من قبلها نبيّ رفقة أخ له فاكهة وأبّا، وحدائق غُلْبا، وانزل بواد غير ذي زرع زوجاً له وصبيّاً....؟ لسْتِ قاصرة لا تسألي فيما عزمت ولياً ولا وصياً، اِفعلي ما شئت، ونعم الرأي ما رأيت،...".

أترانا بحاجة إلى سرد المزيد من صنعة سجعه المبتذل الثقيل؟ لا يعنيك أكثر مما قاله لصاحبتك،... ولده! ولده! يكاد يكسر باب غرفته:

–ألم تقل يا أبتاه في سهرة الأمس بأن عندك موعداً مُهِمّاً في هذا الصباح؟..

–بلى، بلى يا يوسف! لم تتصل أمك.

–ربما في المساء، الهاتف بعد الثامنة مساء أرخص...

–لا تغادر الدار لحظة واحدة إلى أن أعود، زالت الغيرة على الجار، السراق ينهبون أمامهم عرض الجار الغائب وأملاكه، وهم ينظرون من فرج الأبواب دون تنهد.

غادرت الدار على عجل، لا أذكر كيف هيأت نفسي، وأحكمت هندامي، ما عدا هذا الجرح الذي لا يزال يَدْمي، كلما كان مَوْسُ الذَّقْنِ سريعاً، كانت هذه النتيجة، على الرغم من التطور الفائق لِمُوسَيَات الحلاقة الرجالية ، كم مرة أمَوُس هذه الشعيرات على مضض من أمري، أيام الشباب للزينة والإغراء، وأيام الكهولة لاجتثاث كل أثر لشعيرات بيضاء وقد تنكرت لِلَيالِيها السوداء،...

وبينما كنت أهم بتحريك السيارة وقف يوسف بجانبي وهو يلهث: "بابا، فتاة أو امرأة تطلبك في الهاتف، لم ترد أن تصرح لي باسمها، أنا لا أعرف صوتها، كأنني أسمعها لأول مرة، ولكنها ذكرت لي أنها طالبة من بعيد" إني متأخر، كما ترى، قل لها: تعاود الاتصال بي في العاشرة ليلاً، يوسف: لا أوصيك مرة أخرى على اليقظة، أمك طبيبة، وأنا أستاذ جامعي، يعتقد الطامعون أننا عائلة ثرية،... طالبة! في الليل سأؤدبها، كم قلت لطلبتي إني أعمل في شهري العطلة، لي مكتب في الجامعة،... من تكون هذه الطالبة؟ ومن سلمها رقم هاتفي؟...

←←

المقطع السابع

أي صباح هذا الصباح؟ لو لم يغلبني الكسل، ونهضت باكراً بعد ما سمعت حيعلة المنادي لما طاف بي طائف،... ماذا كانت نورة تصنع لو كانت بجانبي؟ فات ذلك الشقيَّ سمكة سمينة من نورة في هذه المرة، وإلا ادّعى... مع أنه وعدها بأن الجان لن "يسكنني" مرة أخرى، هناك ألف حيلة عند المحتالين، أليس هناك جنة مسلمون وجنة كفرة؟ أليس هناك ذكور وإناث من الجن؟...

أيكون هذا البائس قد حمّس نورة وزيّن لها للمضي فيما هي ماضية إليه أم لم يكن ما طاف بي أكثر من حلم مروع؟. هذه المرة ما هو مصدر إفزاعي؟ لم أكن أفكر في أي شيء قبل منامي الذي كان متأخراً جداً، لم أتناول وجبة ثقيلة، هل كل من أعرف ومن لا أعرف من الناس تلاحقهم هذه الإزعاجات وهم غائبون؟.

لا أظن أن الوقت وقت تساؤلات، نورة دعيت إلى ملتقى دولي تنظمه منظمة الصحة العالمية حول صحة الأمومة والطفولة، فرصتها لتوطيد علاقاتها الدولية لعلها تحقق، يوماً ما ظلت ترنو إليه دائماً،... كلما عادت من ملتقى علمي دولي من الخارج إلا وتهاطلت عليها رسائل جمة من عدة باحثين وعلماء بعدة لغات، وطرود من الكتب والمجلات،... كلما كان يحين موعدها لإلقاء مداخلتها التي كثيراً ما كانت تخرج بها عن المألوف في عالم الطب التقليدي، إلا وشدت الأنظار إليها ودفعت الفضوليين الذين يسمعونها لأول وهلة أن يَرْنُوا إليها رُنُواً طويلاً، وكانوا يزيدون عجباً وإعجاباً حين يعلمون أن هذه المحاضرة أمامهم باحثة جزائرية، ثم يتناظرون ويتساءلون ليتأكدوا...

فمن جهة شكلها أنها لا تكاد تختلف اختلافاً كثيراً عن أي رومية جميلة،... تتقن الفرنسية، والإنجليزية، وتناقش المداخلات التي قد تلقى بالإيطالية

والإسبانية،... والذي لم يكن يصدقه بسهولة هؤلاء الفضوليون الرَّناؤون، إنه لا يعقل أن توجد طبيبة باحثة سافرة في جزائر العشرية الحمراء بهذا الشكل جمالاً وعلماً وإصراراً على العمل خارج البيت، وهي لا تزال حية ترزق، وتمشي الخيلاء في الشوارع والأسواق.

لم تكن نورة من الصنف الذي يهتم بالسياسة، ولكن حين يتعلق الأمر ببلدها، وهي في إحدى العواصم الغربية كانت تتحول إلى دبلوماسية فائقة في الذكاء والتحفظ والترميز تارة والتوضيح تارة أخرى، هي خبيثة في تخلصها وتملصها من بعض الأسئلة الغامضة أو المطبوخة سلفاً للإيقاع بصاحبها، مثلما هي أخبث في خرجاتها العلمية المتجددة،... بدأت في المدة الأخيرة، كلما حلت ببلد أجنبي، تتلقى دعوات رسمية من ساسة كبار، كلهم قَدَّروها وأعجبوا بشجاعتها وصمودها طوال هذه العشرية الدموية، غير أن نورة لا تلبي أية دعوة تواً إلا بعد استشارة ممثل بلدها دون أن يحس دعاتها بذلك أدنى إحساس.

إن هؤلاء ليسوا صحافيين، إنهم من ممتهني السياسة لعقود خلت، ومتخرجون من أشهر معاهد العلوم السياسية في بلدانهم، اعترفت لي بأنها كانت تمر بفترات حرجة ومسدودة أحياناً حول ما يجري في بلدها من أحداث الإبادات الجماعية، وأفضت لي بأن ما كانت تزوّد به من نصائح هذا السفير أو ذاك دردشات تقليدية لم تكن تجديها نفعاً لاستغلالها أمام ما كان يدور بينها وبين داعيها من محادثات شكلية ومجاملات لا تخلو كلها من مكر وإشراك، وأفضت لي بأن ممثلي بلدها لم يتفاعلوا مع الأحداث والتحولات الجذرية التي طرأت عليها، هم ينعمون ويسبحون في واد، وشعبهم غارق في واد آخر، ولم تخف لي استغرابها من جهلها إياهم جميعاً، لأن أحداً منهم لا ينتمي إلى الأسلاك الجامعية على غير ما هو متعارف عليه في الدنيا كلها، وأصبح شائعاً أنه لكي تكون لديك فرصة لوضع قدمك الثانية في هذا السلك الذي يسمونه "دبلوماسي" يجب أن تضع قدمك الأولى في عتبة الخارجية.

هذه الشهرة العالمية لنورة لا تتجاوز في بلدها فضاءها المهني، وإلا فكيف تطلب وزارة الصحة بياناً مفصلاً من ألف إلى ياء عن سيرتها الذاتية لما أبدت رغبتها في... مما جعل نورة تعلق بشيء من التهكم "أخشى أن يلتمسوا مني في المراسلة القادمة شهادة من سي البشير".

وتظل نورة وأمثالها مهنةً ولغةً، مع ذلك، أفضل بكثير من أمثال هؤلاء الأشقياء الذين غدوا يشعرون بغربة قاتلة، لا هم شرقيون ولا هم غربيون، فها هي

ذي تصبح مرغوبة في أي مكان من هذه المعمورة، وهؤلاء التعساء غداً رهنهم غير مضمون حتى في بلدهم، أصبح يشار إليهم بالبنان على أنهم أعراب، والأعراب أشد... سيان، إذا شرّقوا أو غرَّبوا، فهم غربيون في الشرق، وشرقيون في الغرب...

دخلت دار الثقافة، فلم أجد غير فراش ينتظرني، وأفراد يعدون على الأصابع من طلبتي المحليين وبعض من أصدقائي المجاملين،... المدير والسلطات في... والجمهور لا يزال مرهقاً من سهرته التي تأخرت حتى ساعة متأخرة بعد موهن الليل رقصاً وسماعاً لحفلات موسيقية في "الراي" وشعبية في الغايطة والزامر والبندير،... حتى القاعة لم تنظف بعد، ستنظف لاحقاً لسهرة ليلية ساخنة أخرى،... خجل الفراش خجلاً شديداً يبدو أنه ابن عائلة فقلت له باسماً "لا تثريب عليك" عرفت بعد حين أنه من قدماء المجاهدين، رفض أن يبيع جهاده بإغراءات مادية سهلة، ذكر لي أنه سعيد بعمله في دار لا يتردد عليها إلا العلماء، ولكنه حزين لإدبار الناس عن الحضور،.... أما النهاية فأنتم تعرفونها، خرجنا لارتشاف فنجان قهوة في مقهى "لاغا".... ثم انصرف كل واحد لشأنه الأكثر أهمية.

استويت إلى طاولة مستطيلة أتعشى وحيداً حتى يوسف دعي إلى خطوبة أحد أصدقائه، نورة وعزيز... إن الوحدة صورة وحشية لنهاية الطريق لكل إنسان،... سأكون مجبراً على السهر،...

رن الهاتف على العاشرة تماماً، كنت قد هدأت نفساً، وسكنت غضباً وأسفت في قرارة نفسي على ما.... هذه الطالبة على الأقل جادة، وشابة في مقتبل العمر، وأي منهن إلا وتحلم بغد جديد، فلماذا أقف في درب حلمهن الطويل أو القصير؟.... ومع ذلك دفعاً لأية أسئلة ثقيلة علمياً ودسمة منهجياً تفاديت الرد عليها، لكن الهاتف بدأ يرن للمرة الثانية،.... هي طالبة ملحاح...

-ألو، وي،...

-هذا أنت!

-هذي أنت!

-لك غيري؟.. الزمن ينسي!

-كفاك مزاحاً!

–المهم أنك ما برحت تعرف على الأقل صوتي، ربما بفضل ما فيه من بُحَّة.

–أنت، أنت، لا تدعين طبيعتك.

–يبدو أنك وحدك، أليس كذلك؟

–ربما.

–هل تابعت أمس إحدى حصص "ARTE" في ساعة متأخرة من الليل؟

–لا كنت أتابع خطاب الرئيس!

–كانت صاحبتك نجمة الحصة!

–أنت؟ وبأية مناسبة؟ رفضت يوماً على هامش أحد الملتقيات الدولية هنا بـ... حتى المشاركة مع أساتذة في حصة على الأثير، كيف تظهرين اليوم،...

–سامحني أقاطع كلامك، قلت لك: صاحبتك، لا...

–آه! فهمت، تقصدين...

–نعم، مالك سكت؟ لو تعرف مع من كانت!

–هي حرة سيدة في نشاطها العلمي.

–يعجبني كلامك.

–وما العجب في ذلك؟ قلت لك... ينقطع الهاتف فجأة.

–معذرة، كنت أبدل البطاقة.

–كنت أحسبك تتكلمين من المنزل.

–جننت لا أكون مرتاحة،.... لا تحمل أي هم بشأن،... منذ سنوات خلت، لم يكلم الواحد منا الآخر، كأنك دفنتنا،...

–أرجوك، أنت تعلمين الظروف.

–أف لظروفك!. ما هو إلا جبن فوق التصور...

–قاطعها مكفهراً: لم يبق إلا أنت، هل أنا في عالم اللاشعور مع أشباح مرة أخرى؟

–سميرما بك؟ كنت أمزح معك، مجرد مُزْحة، ليس إلا،... يبدو أنك صرت عصبياً قليلاً ما، لا تحفل بها كثيراً،... من الآن فصاعداً لن أتركك وحيداً.

–أما أنا، فقد تبت توبة نصوحاً، ولن أعود إلى تلك المحارم ما حييت، عفا الله عما سلف، إني، كما تعلمين، سلخت الخمسين، وأنت تجاوزت الأربعين...

–يبدو أن اليأس بلغ منك مبلغه،... اسمع أعطني رقم جوازك ومدة صلاحيته،... بعد أقل من سبعة أيام ستصلك شهادة الإيواء،... بعدها نتلاقى ونتحدث عن كل شيء، أنا لي أيضاً... وينقطع الهاتف.

←←

المقطع الثامن

أبعد كل هذه السنين الطويلة تطفو هذه الحية الرقشاء من جديد، وتعود هذه العودة من بعيد؟ لن أنصاع لها... هي ونورة متشاكلتان في طموحاتها التي لا حدود لها، لكن نورة أعف وأطهر من سارة، نورة لا تجتهد فيما تحلم به إلا بالبحث العلمي الدائب، والمطالعات المعمقة والمنوعة في آخر ما يشرق في سماء الطب النسوي وطب الأطفال، وخاصة بعدما أصبحت تشتغل على شبكة الأنترنيت، أما سارة فمدرسة أخرى، امرأة مغرية، وخطيرة ومنحلة أخلاقياً، لا يهمها الوسائل التي تستعملها للوصول إلى مبتغاها، إذا رامت شيئاً حصلت عليه،.. يوماً ما سافرنا في رحلتين مختلفتين ومن مطارين متباينين،... رحلتي تأخرت، وصلت الطائرتان في وقت متقارب،... غادرت قاعة المطار سريعاً حتى أفاجئها، لكني ما كدت أدفع الباب الخارجي حتى لاحظت سيارة سوداء لرقمها الولائي ثلاثة عشر، وبداخلها شخصية مرموقة، وبعد ثوان معدودة، خرجت سارة وهي تتمايل بجسدها والهواء يلاعب شعرها الأصفر ذات اليمين وذات الشمال، تواريت وراء عمود مستدير، بدأت أراقب حركاتها وتموجاتها، كانت ترتجف ارتجافاً شديداً من الخوف، علا وجنتيها الناتئتين قليلاً حمرة شديدة، لم تكن مرتاحة، كأنها كانت تحس بأحد ما داخل المطار أو خارجه،... كانت ترتدي بِذْلة مزركشة باريسية ما تزينت بها من ذي قبل، وحول جيدها المستدير منديل حرير أصفر فاقع،... ما كادت تدفع الباب الخارجي حتى بادر إليها السائق محيِّياً إيّاها باحترام شديد، ثم تناول الحقيبة الكبيرة التي كانت تبدو ثقيلة من يدها، وبسرعة فائقة، تحركت السيارة،... كاد يغمى عليّ حيرة وغيرة، ... لكن ما المانع من أن يصنع ذلك المسؤول المرموق جميلاً وينقلها معه إلى المدينة، ... هذه إحدى العادات الطيبة التي لا تزال راسخة فينا لتكريم النساء وإيثارهن، يجب ألا أسيء

الظن بسارة لمجرد رفقتها رجلين من،... إلى،... في اليوم الموالي جاءني أحد الصحافيين ليشكرني على مداخلتي ويطلب مني ملخصاً ودردشة فكرية حول المطبوعات الدينية التي بدأ طبعها ونشرها يطغى على حساب مجالات أخرى، ومدى مواكبة هذه المطبوعات لحياتنا المعاصرة،... لكن الصحافي الوهراني الذي يعرف سارة معرفة جيدة استغرب غيابها، وبالضبط من مداخلتي، فقلت له بعفوية بريئة:

–هي غير مدعوة من هيئة التنظيم.

–لكني رأيتها، نزلت معي في نفس المصعد.

–ربما شبهتها،... يستحيل أن تكون... وأنا... ولا...

–ربما، ربما،... على أي حال، كأني لم أقل شيئاً، الحق معك، ما أكثر الناس الذين يتشاكلون!

في تلك الليلة نفسها هز العاصمة كلها زلزال خفيف، لكن سارة شعرت به فأكملت ليلتها وجلة خائفة، وقفلت راجعة في أول رحلة جوية،...

أقسمت لي بأنها حاولت الاتصال بي فلم تفلح، مدعية أن مصلحة الاستقبال في فندق الأوراسي رفضت أن تسلمها رقم غرفتي وحتى تثبت لي عفافها سلمتني فاتورة غرفة باسمها، وكاد يغمى عليها حين سألتها: "متى كنت تتناولين المشروبات الروحية؟"، فتذرعت لي أن ذلك خطأ في الحساب، وبدأت تلعن إداريي النزل بكل ما لذ وطاب... لم أقتنع بكلامها الصبياني، فتشاجرنا، وتشاتمنا، وحاولت صفعها، ولكن المكان والمقام لم يكونا مناسبين، صاحت في وجهي كحية رقطاء: "الأعظم جرماً وإثماً أن أخون زوجي الشرعي معك أم أخونك أنت مع رجل آخر"... بعد تلك الليلة وضعت سارة الولاية كلها خاتماً في إصبعها،... عرضت علي الاشتراك معها في مشاريع استثمارية فرفضت وفي نفسي شيء آخر.

بقينا لمدة شهور لا يكلم الواحد الآخر، إحالة ذلك المسؤول على التقاعد ورحيله إلى مسقط رأسه بعيداً عن... قمنا بسفريات سياحية إلى بلدان أجنبية، فتصالحنا وكأن شيئاً لم يكن،... ومع ذلك، لم أنس تلك المشاهد التي تركت في نفسي أثراً سيئاً من آثار ذكرياتها، هي كثيراً ما وصفتني بالأنانية وتصور أشياء لا وجود لها في الواقع.

مر كل شيء، وآن ميلاد العشرية الحمراء التي أبدت نواجذها، وكشرت عن

أنيابها في وجه المثقفين والطلائعيين،... كانت سارة من الفارين المبكرين قبل أن يسقط أول شهيد ربما كانت في اللائحة السوداء لما كان لها من علاقات خارجية واسعة، ولم تكن نورة وقتئذٍ إلا تلميذة لها في هذا المجال،...

ألحت علي إلحاحاً شديداً في الهجرة معها إلى الضفة الأخرى،... ذكرت لي أن لعائلتها المقيمة في ليون شقة على مدار السنة فارغة في مرسيليا،... فأجبتها:

. "والدي لم يهجر قريته والجزائر محتلة، والحرب الإبادية قائمة، فكيف يرحل ولده اليوم، والجزائر مستقلة، بعد ثلاثين سنة، والحرب واضعة أوزارها؟"..

"تلك حرب شعب مغصوب ضد عدو غاصب، أما هذه ففتنة، والفتنة،... ستندم، تشجع، سأبحث لك عن منصب جامعي، ما أكثر الشرقيين الذين لا يعرفون فرنسية ولا عربية!... سأكون شقية بدونك، ألا تفهم؟..".

. "أليس معك زوج وأولاد؟"..

. "عدت إلى الهزء مني،.. دَبَّر راسَكْ، أنت حر"..

لم أنصع لأهواء سارة، لأول وهلة أحسست بشيء من الرجولة، وأن لي نفساً أبية، بقيت في وطني الذي تركه لي أسلافي أمانة في عنقي، وسأبقى فيه إلى آخر رمق وَشَرَقٍ من حياتي، لولا أن كلمة الرب قد سبقت، لتضرّعت إلى الرب ابتهالاً، واشترطت شرطاً واحداً، أن أموتَ في وطني وأُوَارَى في ترابه الزكي، وأن أبعث فيه يوم الحشر من جدثي...

لم يكن لي اختيار، الرب من اختار لي هذا الوطن، وأنا راضٍ وسعيدٍ باختيار الرب،... مثل هذا الخطاب يغضب سارة، ويرضي نورة التي عز عليها أن تهجر قريتها إثر معركة شرسة بين الثوار والمحتل، وهي لا تبرح طفلة صغيرة،... لكنها فخورة، لأن أباها تحول بين عشية وضحاها من فقيه "درار"، إلى رجل ثوري، قلد مسؤولية عالية بفضل إتقانه العربية والفرنسية الشفهية، وجد ضالته، نصف درب ضيق واحد من دروب باب الواد يفوق قريته السابقة كثافة..

أما سارة فلم يكن اختيارها وطناً ثانياً اختياراً شقياً، المرء إذا رضي بشقاء في نفسه، وأذهب عنها عزتها وكرامتها هان عليه في أول المطاف كل شيء، رحم الله الأولين: من يهن... ما لجرح... سارة مواطنة من الدرجة الأولى هنا، ومن الدرجة الثانية هناك، واختلاف الدرجات لا يمنعها من تلونات شتى، هذا حال كل من هو في صفة سارة، اللهث شديد على جنسية الضفة الشمالية، بالأمس القريب كان الأحرار يجودون بأرواحهم بهدف تمزيقها وإلقائها في المتوسط، واليوم يلهث

العبيد... إن العيش بحليب بقرة أو معزة في وطني أشرف وأنظف لي من خمسمائة نوع من الجبن هناك...

إنها مجنونة، تطلب مني أن أسافر إلى الضفة الشمالية لنتلاقى من جديد، من غير شك أنها تفكر في ذكريات بالية، تعتقد أنها لا تزال تلك الفتاة الشابة المرغوب فيها، وأنا ما فتئت ذلك الشاب ابن الثلاثين، كم هي مخطئة الزمن تغير، العالم كله تغير، إلا حماقات سارة لم تتغير، صرت منذ عشرية كاملة أشعر بالخجل، من نفسي كلما تأملت نورة الزوج الوفية، تسيح، تجول، تطوف العالم، ولا تستهويها نفسها، لاشك أنها صادفت في رَحلاتها رجالاً فيهم ملامح ومميزات رجولية لا أظفر بها، من غير شك أنها تمالكت نفسها، وصانت شرفها من أجل ألا تخونني، وهي امرأة فيها من الصفات الأنثوية ما يجعل الرجال يتساقطون سجوداً عند قدميها، إني خائن لست جديراً بها... حاولت أن أعترف لها مراراً بعد هجرة تلك الأفعى السامة إلى الضفة الأخرى،... لم أخف من الاعتراف، كنت مستعداً لأتقبل منها ردود فعلها كيفما كانت،... يوم، يومان، شهر، شهران،... لاشك أن ظروفاً ما تطرأ لتجمعنا،...خفت من الانتقام،... الانتقام سلاح المرأة الوحيدة كلما نشزت من زوجها بسبب خيانته إياها لو أغلقت عليها في بروج مشيدة..

كثيراً ما وصل من هذا القبيل أصداء إلى مسمعها من نمامات، أحياناً كانت تلمح لي بذكاء وإشارة عابرة، وأحياناً أخرى كانت تصارحني، فأنكر، وأثور في وجهها، وأقاطعها أياماً لا أتكلم معها، لكن منذ عشرية كاملة استراحت من كل الوساوس والشكوك التي كانت تساورها، والتي كانت تتحول عندها إلى يقين مطلق كلما جمعها جمع بسارة التي اعترفت لي أنها حين تتلاقى مع نورة لا تستطيع أن تخفي مشاعرها بالغيرة المفرطة، وأنها تتحول إلى فتاة غير طبيعية، مما كان لا يخفَى كلياً عن نورة التي كانت هي الأخرى تتابع حركاتها وسكناتها بلهف كبير،...

إني اليوم أجبن من أي وقت مضى للاعتراف لها بحقيقة خيانتي إياها من سارة،... هل فات الأوان أم الوقت لم يئن بعدُ،... لو فليت الظروف كلها لما وجدت ظرفاً واحداً أنسب لمفاتحتها في هذا الموضوع الذي يختلف اختلافاً جذرياً عن موضوع رغبتها للعمل طبيبة في جنوب البلاد،...

المقطع التاسع

عادَتْ نورة محملة بهدايا رفيعة، من الكتب والمجلات إلى العطر الباريسي والثياب الشانزيلزية، جعلت تأخذ معها عزيزاً للوزن في العودة، ودفعاً للعيون العاشقة وتيئيساً لأصحاب النفوس الجامحة،... يبدو أنها أضحت تجد متعة لا تعد لها متعة، كلما سافرت إلى عاصمة أجنبية وصاحبت معها ولدها،... عادة ما تدفع تذكرتها من المستشفى الجامعي الأصلي أو الهيئة المنظمة، هي لا تدفع إلا تذكرة واحدة،... هي مدعوة بقوة لحضور مؤتمر عالمي في كندا، هذه المرة سيستحيل عليها أن تكون مرفوقة....

حين تكون نورة غائبة يستأسد سمير، ويحس في نفسه قوة أدبية تمكنه من قول أي شيء،... هو الآن أمام ثلاث معضلات، تردده في تنفيذ وعد سارة أو بالأحرى وعيدها، جبنه في إقناع نورة بالعدول عن إصرارها للعمل في الجنوب، اعترافه لنورة بخيانته فيما مضى من الزمن مع... كلما كانت نورة غائبة إلا وسال لعابه بهذيان لا يكاد ينتهي، وحين تحضر ينعقد لسانه، وتنفد كلماته، ويحتار في أمره، وأحياناً يضيع في أحضان نورة، ويتيه في رشاقة حديثها الماذي، ليعتريه في النهاية بلاهة صبيانية، فيَشْخُص بصرهُ، ويقف حيث هو مبهوتاً سادهاً،... لولا ذانك المشهدان اللذان تراءيا له، وهو بين اليقظة والنوم بين حافتي عالمين متناقضين، لما قُيِّضَ له أن يَنَبِّسَ ببنت شفة،... لكي يقول كلمة أو كلمتين الآن، عليه أن ينتظر مشهداً ثالثاً، يتراءى له من العالم الآخر، كأنه كلما ضاق ذرعاً بمعضلاته الواقعية حاول أن يفر بروحه إلى عالم اللاشعور، حتى تصبح معضلاته وآلامه زيفاً سرعان ما يزول بزوال مشهده،... لكن إلى متى يظل سمير يتنكر لعالمه؟..

حين كانت نورة غائبة في المرة الفائتة، واتصلت به تلك المرأة التي سماها حية رقشاء، قال في نفسه: "لا يفلّ الحديد إلاَّ الحديد".. نورة الوحيدة التي تستطيع أن تخلصني منها، وهاهو الآن يتصابى، وربما يفكر في لقاء سارة بعد عشرية كاملة من الفراق بينهما خوفاً من مكرها، لن تتردد سارة إذا ركبت هواها للقيام بأي شيء للانتقام من سمير بوساطة نورة، أو من نورة بتسخير سمير نفسه دون أن يشعر بذلك أو يقدر العواقب إلا بعد فوات الأوان..

يظهر أن سميراً حكم على نفسه بكل الصفات المشينة التي وصف بها في مشهده العظيم، لو كنتُ في مكانه لاعترفت لنورة، وأنهيت هذه المعضلة، ربما لا يريد أن ينغص عليها متعتها التي عادت بها، هي منذ الآن عضوة إقليمية في منظمة صحية عالمية مهمة، ستكثر سفرياتها، وستتعدد لقاءاتها،.... بينما سمير يطمح ببصره نحو أدنى منصب لن يمنح له ما حيي، حتى في ميدان مهنته في المرة الأخيرة، كاد يعين خطأ على رأس جامعة ذات أهمية في آخر لحظة تبين لأصحاب القرار أن التعس أعرابي..

يبدو أنه ليس فقط شقياً بل غبياً أيضاً، هو متعلق بأهداب "قسماً" لا يزال وفياً لدماء ضحايا الواجب الوطني، يتمنى أن يموت وينشر في وطنه،... ما أصغر عقله! ما الأرض إلا أرض الله، وهي واسعة، فيا عجباً لدكتور مفكر عقله وفلسفته في الحياة أكثر قصوراً من فلسفة صعلوك جاهلي:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات والليل مقمرٌ وشدت لطيات مطايا وأرحل

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

أم ليس منظوراً إليه إلا في خانة واحدة؟ إنه لا يختلف عندهم في طبيعة المناصب العليا التي ترفض من آدميين دونه مستوى عن هذا الصعلوك الجاهلي، ذنبه الوحيد أنه.. نورة تعتز به اعتزازاً كبيراً على حاله وطبعه، وتشعر أنه لا يكملها، وأما سارة فطوال عشرتها معه، فإنها كانت تبتز منه الكلمات، ولا تبادله كلمة أجنبية واحدة،... بدأ التعريب يكتسح الإدارات، والمؤسسات والجامعات،... وبعد عشريتين تحول التعريب إلى طابوه مدنس يجب القضاء عليه للرجوع القهقرى إلى خطاب مقدس، أليس الرجوع إلى الأصل فضيلة؟...

تا لله، لو كنت مكانه لما ترددت في قبول عرض سارة منذ بداية الأزمة،

ولكنت اليوم رجل مال وأعمال،... هناك سارة، وهنا نورة أم:

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لامَ فيه ذو الشّنانِ وفنّدا؟

ولكنه أعرابي مُتخلف، يحلم بصفات مثالية أم لم يوافقه فيها حتى أخوه

عمر، ... حسب الناس ملائكة، وهو نفسه لماذا استهوته سارة، وهي من حق غيره؟.. هو يحفظ أكثر مما يحفظ العالَمُون:

لاتنه عن خلقٍ وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ولكن حين يتعلق الأمر بسارة لا يتردد في وعيده بإشعال حرب كونية من أجلها، ما يقوله المرء في عالم اللا شعور أصدق وأصح مما يتلعثم به تلميحاً أو تصريحاً في عالم الشعور،... إنه فعلاً يحبها، لا يزال متعلقاً بذكرياتها السيئة والحسنة،.... يدعي أنه تاب توبة نصوحاً، وعفا الله عما سلف، ليت الأمر كما يقول، لكن هل سيثبت في كلامه؟..

←←

المقطع العاشر

من إحدى العادات التي يستبشعها قوم، ويستحبها قوم آخرون في مدينتنا المشدودة بربوة الولية الصالحة "لالة ستي" أن خبراً إذا ذاع بين خاصتها مساء تفشَّى وشاع بين عامتها صباحاً.. طفقت الألسنة تلوك، والشفاه تردد أن نورة توشك أن يسند إليها منصب سام، وتردد الساحة العمومية لهذه المدينة أنها زكيت حتى من شخصيات خارجية لها صلة ود وصداقة بأصحاب الظل..

سمير لم يفاجأ بهذه الإشاعة، تعود هو وغيره ممن لا يعنون بالتقاط أخبار الناس، وتتبع كل صغيرة وكبيرة عن أحوالهم أن يسمعوا مثل هذه الدعايات،.. ثم تساءل: "لو كان الأمر كما يقول الشارع التلمساني لكنت ثاني اثنين ممن يعلم هذا الجديد"...

لا ينكر سمير أن في نورة التي أصبح يشار إليها في مصحتها بـ"المرأة الحديدية"، كثيراً من الصفات التي لا يملكها مسؤولون سامون في هرم السلطة، وأنها بنت شهيد، لفظ أنفاسه الأخيرة تحت وطأة تعذيب المظليين، وابن مهيدي، ورفيقان له في كتب "كنية" داره، كان ابن مهيدي، ورفيقاه على أهبة الاستشهاد وهم يسترقون السمع من الثقبة الهوائية الصغيرة للتنفس، ... ترحموا عليه، وأعادوا القنبلة المهيأة للانفجار إلى وضعها الآمن،....

غير أن سميراً نفسه استملح هذه الإشاعة، ولربما سيجد في نفسه هذه المرة شيئاً من الشجاعة لمفاتحة نورة فيما يشاع حولها حالما تعود بعد أيام من كندا، حتى أمه السيدة لطيفة وصلتها الشائعة، المسكينة أضحت تتأسى بحفيدها عزيز، لم تيأس بعد، لا تنفك تأمل أن يطرق عمر باب الدار في أية لحظة، مادام باب

الوئام المدني لم يغلق نهائياً، وحسب بعض المطلعين الذين بدأوا منذ أشهر يشعرون بالأمان للإفضاء ببعض الاعترافات التي كانت تعد حتى وقت قريباً توقيعاً على الموت، أن اختفاء عمر لم تتسبب فيه جهة واحدة فقط، وخلال حملة الوئام المدني طرق أذن سمير أن أخاه موجود في جهة ما من الريف المغربي حياً يرزق، لكنه لم يجرؤ على نقل هذه الشائعة إلى لطيفة التي ستكون في وضع أسوأ مما هي عليه، فكر سمير في الانتقال إلى الريف المغربي للبحث عن أخيه وطمأنته، ولكنه أحس بالفشل، الحدود مغلقة براً، وأخوه فيما نقل إليه، يعيش بهوية مستعارة في بعض الحقول الزراعية،... عرض على السيدة لطيفة غير ما مرة أن تنضم إلى جمعية عائلات المفقودين، ولكن لطيفة التي أصبحت مُسَبِّحَتُها لا تباين سُبْحتها احتسبت ما ألم بها أجراً على الله..

←←

المقطع الحادي عشر

أيظن أحدٌ أن ما يردده الشارع التلمساني إزاء نورة، ستهضمه سارة في الضفة الشمالية، على الرغم من أنه لا يعدوحتى الآن أكثر من مجرد إشاعة؟.. سارة منضوية في أكثر من هيئة وجمعية محلية وإقليمية على مستوى دول المتوسط، هي الأخرى تتقن اللغات وتهتم بتعليمها أكثر من نورة، وهي الآن تدرّس العبرية والفارسة في إحدى الجامعات الفرنسية... لكن ألف مستحيل أن تكون سارة من الشخصيات المرموقة التي قد تكون زكت نورة من خارج البلد، ... وستكون سارة أكثر شقاء لو يقدّر لغريمتها أن تعين وتنصب في موقع قريب منها، إنها لا تتحمل رؤيتها،... ستعيدها إلى ماقبل العشرية الحمراء، ستذكرها بكل شيء،...

ربما يعد التساؤل عن موقف سارة تساؤلاً سابقاً لأوانه، الأهم من كل هذا: ماهو موقف نورة، إن تحولت هذه الشائعة إلى حقيقة؟ في محيطنا لا يعين أحد في منصب حساس وخطير دون أن تباركه دعايات هنا وهناك مسبقاً، لا وجود لعنصر المفاجأة، الممسكون بملفات المحظوظين لا يعرفون كيف يسعون ويتصرفون،... مطالبة وزارة الصحة، وهي هيئة مدنية، نورة بتقديم ملف حول ملتمس شكلي،.. خلق شكوكاً وتساؤلات كثيرة لدى العاملين معها في المستشفى الجامعي، ولاسيما لدى صديقها العزيز سي البشير الذي تجاهل شكواها بكثير من اللا مبالاة..

كان أمل نورة منعقداً على تحدي الأطباء الرجال للانتقال إلى أي نقطة جنوبية أكثر حرماناً في قطاعي الأمومة والطفولة،... على أي حال ستصل غداً في ساعة متأخرة من الليل،... هاتفت يوسف أنها ستعود مضطرة عبر العاصمة

وستقضي ليلة الغد مع جدته منيرة...

انتاب سمير قلق شديد مما أبلغه به ابنه يوسف، لم يجد له هو شخصياً تفسيراً، كيف لا يقلق على نورة عندما تؤم آخر نقطة من الكرة الأرضية، ويسوده هذا الشعور الغريب وهي في العاصمة عند أمها، ولليلة واحدة؟... أضرب حتى عن الذهاب لمعاينة بريده حتى لا يرى شيئاً مما وعدته به مؤخراً سارة، السبعة أيام غدت شهراً ونيفاً هي لن تكلمه بسهولة، اللياقة الأدبية تقتضي منه هو أن يشكرها، لكنها لن تتزعج بسبب الوقت، هي تعلم أن التأشيرة تنتظر الرد من،... وتسحب من،... وسنو الفراق والهجر الطويلة عوّدتها التجلد والتريث وفلسفة خاصة في مغامراتها الغرامية، ومن أدرى سميراً بأنها لا تكون قد علقت بهوى شخص آخر يضارعه شكلاً؟.. أيعقل من امرأة منحلة أخلاقياً تعودت العيش مع أكثر من رجل، أن تألف العيش مع رجل واحد كالتمثال طوال عشرية كاملة؟...

لم يطق سمير السهر وحده ليلاً، قفا أثر ولديه اللذين تركاه وحيداً، لكنه لم يطل السهر مع أمه خوفاً على داره من السراق الهواة الذين أفرزتهم البطالة والطرد من مناصب عملهم، إنها مجاعة غير معلنة، الأسعار تَصَّاعَدُ صاروخياً، ومستوى المعايش ينخفض بسرعة أكثر من سرعة الصوت،...

حَضَّرَ سمير ألذ وأشهى ما تفضله من مآكل ومشارب، أعفى أمس الخادمة، نوى أن يطبخ هو بنفسه وجبة العشاء تكريماً لنورة التي كثيراً ما تنفتح شهيتها انفتاحاً فيه ارتياح وانشراح، إذا ما أكلت من أيدي الآخرين، هل ذلك الانطباع منها تملق ومجاملة أم إعجاب واستلذاذ؟.. فذلك مالا يستطيع أحد أن يصل إليه بمن فيهم سمير نفسه، لكن الذي لا مرية فيه أنها مفتونة ببعض الأكلات الشعبية القبائلية التي تحضرها لها أمها، وبعض الوجبات المغربية التي غزت مطابخنا الغربية..

لم يجرؤ سمير على محاورة نورة التي سهرت إلى ساعة متأخرة من الليل مع منيرة التي أخبرتها بنتها، وهما في الطائرة بكل تفاصيل ما يروج حولها.

لما اختلت إلى زوجها فكرت في ألا تنغص عليه ليلته بمجرد مقابلة أولية استشارية، لكن الأرق خيم عليها، وشعرت بشيء ما داخل نفسها يؤنبها،...

دارت على جنبها الأيمن متناومة، وإذا بهاتفها يرن،... لم يحفل به أحد،... عاود رناته للمرة الثانية، والثالثة،... نهض سمير، والكرى يمايله، فصرخت نورة

في وجهه: "لا ترد" وانزع "لافيش"... وماكادا يستسلمان إلى النوم من جديد حتى سمعا جرس الباب الخارجي يرن هو الآخر،... صاحت نورة "لنتصل بالشرطة عن طريق الخط الأخضر،... اتصل أي شيء تنتظر؟..."، أدار سمير الرقم الأول، ثم حط سماعة الهاتف، وثار في وجهها "اصمتي" ربما لأول مرة في حياته، مهرعاً نحو الصندوق الفولاذي،... اخرج منه مسدساً واتجه صوب الباب:

. من خارج الباب؟..

. سمير؟

. نعم، أنت من؟..

. سي البشير!

. سي البشير؟..

. أجل، الدكتورة موجودة.؟؟

. بلى..

كانت نورة، وهي بمنامتها، تسمع كل شيء، فهي تعرف صوت سي البشير، مثلما تعرف نفسها، لكنها تساءلت "سي البشير" شخصية مؤدبة، يستحيل على رجل مثله وقاراً وخجلاً أن يقدم على إزعاج أحد في هذه الساعة المتأخرة،... لاشك أنه في أمر خطير، في أزمة، وما دوري أنا كامرأة فيها؟".

. معذرة، دكتورة، ليس من الأدب...

. أرجوك لا تقل شيئاً، وقل: لماذا جئت؟..

. زوجي تجاوزت وقت الولادة المحددة، أنت كنت غائبة، ولا طبيب مختص في المستشفى،...

. لا تضيع الوقت، نتكلم فيما بعد،.... دقيقة لارتداء...

قضت نورة ما بقي من تلك الليلة في جو مشحون بالهلع، لا تدري لماذا تخاف لأول وهلة من هذه الولادة، وهي التي سبق لها أن واجهت وضعيات أخطر وأدق من هذه؟ ألأنها زوجة صديقها المهني الذي ما رد لها طلباً منذ معرفتها به أم لأن الوضعية فعلاً أشد خطورة من كل ما سبق؟ تحتاج بعض العمليات الحساسة أحياناً إلى قرار طبي مشترك،... لكن الوضعية التي عليها زوجة "سي

البشير"، لا تحتمل التأجيل حتى الصباح، عليها أن تتخذ قراراً طبياً تقديرياً بمفردها، و...

وقبل أن تتخذ نورة أي قرار حاسم، أرادت أن تجعل سي البشير في الصورة المحتملة الأقل خطراً وضرراً بزوجته التي تكاد الآلام تفتك بها، فهو طبيب، وأي طبيب!، يمكن أن يتفهم زميلته، ويقدر ظروفها أمام الوضعية التي توجد عليها زوجته، لو كان التدخل سريعاً قبل ساعات لما آلت إلى هذه الحالة المزرية،... دعته إلى مكتبها المجاور لغرفة العمليات، بينما كلفت مساعداتها الداخليات بإجراء وتحضير روتينيات عملية الجراحة، ثم قالت له، والأسى يمزق أوصالها:

. لو لم تكن من جنس المهنة لما دعوتك.

. مافي الأمر يا دكتورة؟...

. بكل صراحة، نحن أمام احتمالين اثنين لا ثالث لهما.

ـ أرجوك، لا تكملي،... الاحتمالان أحلاهما مر، ولكن إذا كان ممالا بد، فالأسبقية لـ.. قبل الجنين،... لكن سي البشير فقد هنا توازنه تماماً، وطفق يجهش بالبكاء:

"تعلمين حلمي الكبير يا دكتورة، منذ عشرين سنة ونحن نعالج في الداخل وفي الخارج، أنفقنا كل ثروتنا على العلاج، وبعد أن... نعود إلى الصفر، وأنا ابن الخمسين، زوجتي سلخت الأربعين،... أليس هناك أمل ضئيل يمكن اعتماده طبياً في مثل هذه الوضعية؟"...

. الأمل ضئيل موجود، لكنه يعرض الأم والجنين معاً إما إلى.. وإما إلى.... لأن ولادة زوجتك ليست عادية، كما أخطرت من قبل، ... فحجم حوضها لا يسمح، ... أستميحك، آن وقت العملية، كل تأخر لن يكون في صالح المريضة ولا جنينها....

كانت ملامح القلق والهلع بادية على سي البشير الذي يضرب به المثل في الصبر والتأني وبرودة الأعصاب في هذا المستشفى، لم يبارح مكانه، بقي يمشي ويجيء، ويتوسل إلى الله عز وجل لينقذ الاثنين معاً،.. ساعة، ساعات،.... سبع ساعات،... دخل الموظفون، والعمال، وأفواج العمل المياومون، ونورة لا تزال تصارع الزمن، وهي كطبيبة مؤمنة تعلم أنها لن تتحدى القدر، لم تبارح مكانها ثانية واحدة، ... كل الفضوليين تعجبوا من وجود سي البشير في هذا الجناح الذي

لا يمت بصلة إلى عيادته التي يرتهب منها الجميع ويتذرعون بشتى السبل والتعلات الواهية لئلا يعملوا فيها... غير أن سي البشير لم يبال بواحد من هؤلاء الفضوليين باله منشغل منذ سبع ساعات بشيء آخر،.. وفجأة قرع سمعه الحاد صراخ مرة واحدة ثم سكت،... لم يكن سعيداً بهذا الصراخ لأنه فكر في الثمن الباهظ الذي دفعته أمه،... وما هي إلا لحظات قصار حتى خرجت نورة ووراءها خمس طالبات داخليات يتمايسن كالحمامات والعرق يتصبب وهاجاً من أوجههن فبادرته نورة:

ـ سي البشير، من هذه اللحظة أنت أب، مبارك، يجب أن تكون أباً مثالياً، وتعمل على أن يكون ابنك مواطناً صالحاً... يدخل المدرسة، يكبر، ينجح، ليس مهماً أن يكون مثلنا طبيباً، الأهم أن يشبهك في حلمك، وخلقك، وجلدك، وتسامحك،... كلها صفات لا تكاد توجد، يا بنات، إلا في مثل هذا الطبيب العظيم....

سئم سي البشير حديث نورة الذي عده غريباً، وتضايق من عيون ونظرات أولئك الطبيبات المساعدات الفاتنات،... ثم قاطعهن وجعل يترحم على زوجته، ويعدد مناقبها، ويتضرع إلى السماء لتسكنها فسيح جنانها، ويعد روحها الطاهرة بأنه سيتكفل بتربية مولودها بالطرق النبيلة التي كانت تحلم بها،... نظرت المساعدات الخمس إلى نورة التي اكتفت بالحملقة والإنصات، لم يفهمن شيئاً... شككن في أنفسهن وهن ممن ساعدن أستاذتهن في توليد فاطمة،... وما لبثن أن أجهشن بكاء تأثراً بتأبين سي البشير زوجته، وهنا وجد الزوج ضالته في المزيد من الرثاء والندم وطلب السماح من فاطمة إن كان في يوم ما ظلمها أو قسا عليها،... ثم التفت إلى نورة: "في جميع الأحوال، أشكرك يا دكتورة، عملت ما عليك وزيادة هذا قضاء الله وقدره، ليس الطبيب إلا سبباً، وإلا لما مات طبيب على وجه الأرض،..."، ثم عاد إلى حالته السابقة، لن أتزوج بنت حواء بعدك يا فاطمة، تا الله لن أتزوج بغيرك ما حييت!... وبينما هو كذلك في حالة غريبة عن شخصية سي البشير المألوفة، ونورة ثابتة لا تضحك، ولا تبكي، أتته ممرضة هاشة باشة: "تفضل سيدي، إذا شئت، تزور عائلتك"... لم يصدق سي البشير عينيه، وهما تريان فاطمة، وقد استيقظت من غيبوبة التخدير، وهي ترضع صبيها،... كاد يفقد صوابه فرحاً وسعادة، والتفت إلى نورة الطبيبة القديرة، ودون أن يتفوه بكلمة أمسك يدها ليقبلها، فسحبتها نورة من شفتيه بسرعة متناهية: " أستغفر الله، أستغفر الله، الشكر لله عزَّ وجلَّ، يا رجل، مانحن الأطباء إلا

بشر،...."، أما المساعدات فزالت الشكوك من أنفسهن وفاضت عيونهن بالدموع دون أن تتقاطر وباين الغرفة وهن يطرن بنصر ذي حدين.

←←

المقطع الثاني عشر

ما إن عاد سي البشير إلى مقر عيادته لترتيب الأمور الإدارية لأخذ إجازة،... حتى تذكر أن الطبيبة التي جيء بها في سيارة الإسعاف ليلاً بدون سيارتها الشخصية،.. هاتفها في مكتبها، فقيل له: غادرت المستشفى،... حرك سيارته ذات اللون البني،... هو يعرف أنها تتجه إلى موقف سيارات الأجرة، إن لم تكن اتصلت بسمير،... استوقف السيارة التي كانت بداخلها معتذراً إليها أن ما اعتراه قبل قليل صرفه أن...

–ليس بيننا، بروتوكلات، لم أرد أن أزعج سميراً،...

–ما رأيك في قهوة مضغوطة؟ لا أدري كيف تجلدت حتى الآن؟

–تساءل، و...

–سي البشير مبتسماً: "لخروف يلعب على ظهر أمه"

–لا تنس أني أصغر منك سناً، قالت هذا وهي تقهقه حتى لفتت أنظار العابرين في مدخل المستشفى، لكنها لم تعبأ بأحد، فهي معتادة على عيون المعجبين بها في كل مكان،... وكثيراً ما تساءلت: بماذا أتميز أنا عن التلمسانيات؟ هن أيضاً جميلات ظريفات وحضريات،...

–خذي قهوتك.

–ما هذا؟

–أوه! مجرد هلاليات.

–شكراً، إنك لكريم جداً.

–هذا البخل بعينه، قال سمير هذا، وهو يضحك في سعادة مفرطة.

–إذا لم تدعني أنت وفاطمة إلى النسيكة فإني سأكون لأول مرة أشعبية.

–إنك مدعوة من الآن إلى سابعه، وختانته، وعرسه.

–يا من عاش!

–بعد الذي جرى سأكون معك أنانياً جداً سأنتصر إلى المعترضين على رغبة انتقالك إلى الصحراء،... تصوري ماذا كان يحدث لفاطمة ومولودها لو...؟

–ما جد منذ أيام أقوى من رغبتي التي ستبقى معي دائماً حلماً يراودني،... تفكر الأمم المتحدة في إنشاء فرع شمال إفريقيا والشرق الأوسط مهمته التكفل بقضايا صحة الأمومة والطفولة،... قد يكون في بلدنا أو في بلد آخر من هذه البلدان،... لم يكن من حقي أن أرفض ثقة سامية ودولية،...

–سمعت بهذا، وسررت له سروراً بالغاً، كم أتمنى أن تُشرف وتكرَّم بلادنا بإيواء هذا الفرع الأممي.

–السطات العليا مستعدة لتقديم كل الإمكانات المادية والمعنوية لهذه المبادرة، وقدمت مذكرة ملموسة في هذا الإطار، اطلعت عليها أول أمس.

–وسمير؟

–لم أحفل باعتراضه السابق الذي فهمته منه دون أن يفصح لي به، فكيف أهتم اليوم باعتراض لا حق له فيه هو ولا غيره؟

–لا أريد أن أدلو فضولي فيما لا يعنيني، لو لم تكوني أعز إنسان عندي،...

–قاطعته متفكهة: حتى من مولود الصباح!

–قلبنا، كما تعرفين، يسع أكثر من واحد، والحب منبع له منفذ، ولكن لا نفاد له... معزتك عندي منطقة ممنوعة،...

–قاطعته مداعبة: يكفي، يكفي،... أنت طبيب أم أديب؟ يجب ألا نعتدي

على الشعراء،... ألا تدخل الموضوع، وتخلصنا من هذه المجاملات المبالغ فيها؟

–هل شفي من مثل ما انتابه منذ شهور؟

–ليس نهائياً ولكن بدرجة أخف، منذ تلك الليلة لم أعد أدعه وحده حتى في الأيام... حتى سي علي أصبح نائياً عنا،... أخيراً، وبعد قنوط، فكر فيه رجال البلد المخلصون ووقفوا بجانبه،... أصبح الشارع التلمساني كلما رآه ماراً به، يقف مبهوتاً مشدود الأنفاس: سبحان الله! أفقيه ويقود سيارة؟ تعودوا ألا يرَوا حفظة القرآن وفقهاء الدين إلا على الحمير، ونادراً ما يعاينونهم على بغال،... يحسبون السيارة هناك ثروة أو معجزة!... أكد لي سي علي أن العفريت لن يدور به مرة أخرى، لكن من يدري؟ كل شيء ممكن،... لم أعد أتركه يستغرق في غيبوبته، في الحين أوقظه، لكن الغريب صار يثور ويغضب ساخطاً من إيقاظي إياه،... لكني أقدر ردود فعله، لا يكون على ما يرام،...

–بصراحة يا دكتورة، لزوجك سر مكين لا يستطيع أن يفصح به في عالم الشعور خوفاً من أن ينعكس عليه بالأذى والضرر،...

–لم أفهم.

–هل سمعته، وهو في عالم اللاشعور، يتلفظ أسماء؟

–هو يتلفظ بلائحة طويلة وعريضة من الأسماء العربية والأجنبية وحتى الأسطورية.

–هناك اسم ما بين هذه الأسماء لا يزال كابوساً يطارده، تورط معه فيما مضى تورطاً بعيداً، وهو الآن عاجز للتخلص منه بشكل نهائي، والبوح به بالنسبة إليه تدمير لطرف آخر لا يريد أن يدمره.

–ألا ترى أن هذا افتراء وهمي بعيد في حق سمير؟

–قد يكون، ولكن الانتيابات التي تتعاوره بين كل فينة وأخرى... أليس له صديق حميم يثق فيه؟

–كثيرون.

–ما يلاحقه لا يمكن أن يفضي به لأكثر من واحد أو اثنين كأقصى حد.

–هناك أحد أجدر مني ثقة عنده؟

–لا يعترف لك بالسهولة التي تتخيلين ستكونين أمام سمير يختلف اختلافاً كلياً عن سمير الذي عرفت منذ أزيد من عقدين،...

–سأحلبه حلباً، وإلا لست أنا نورة القبائلية، سأجعله صبياً يعترف لي بكل صغيرة وكبيرة،... فيما مضى لم أكن أبالي بما كان يقرع أذني من شائعات غرامية مع إحدى المغامرات في اقتناص الرجال، وهي متزوجة... الله يبَهْدلْها،... لكن هذه الشكوك التي كثيراً ما أرقتني وعذبتني قد انتهت برحيل تلك العقربة الصفراء، لا ردها الله!

–قبل أن تتفاءلي بأي شيء منه، هل أنت مستعدة لتقبل اعترافه، حتى ولو كان في غير صالحك؟

–لست أدري، المهم بالنسبة لي أن يعترف.

–يا دكتورة، ستكون الصدمة قوية عليك، أنت قوية، لكنك في مثل هذه المواقف ستكونين هشة، وسيكون رد فعلك ممزوجاً بشعور الحنان والقساوة.

–المهم أن أعرف ما يدور في ذلك الرأس، كل هذه السنين وأنا لا أعلم، ما كان أبلهني!

–ألم أقل لك؟ بدأت تقولين أشياء لا تزال حتى الآن مجرد توقعات لأوهام ربما لا تخصك إطلاقاً... ليس هذا هو الطريق الذي سيرغم سميراً للاعتراف لك، ولن يعترف إلا ترميزاً أو تلميحاً، بينما يمكنه ذلك مع أحد ثقاته من أترابه.

–لا تخف على طبيبتك، فلها أسلوبها... سأتجرد من... سأتحول إلى نورة الفتاة كما عرفها سمير لأول وهلة، سأعود بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي تسلق فيه شجرة باسقة في الحرم الجامعي، يقال إن عمرها قرن ونيف ومسجلة في اليونيسكو، ليفتن إحدى الطالبات منا، فكنت أنا أول أو أسرع المفتونات بخفته ورشاقته وطلاوة حديثه،... كان يساعدنا في مقياس اللغة العربية الذي كان في عهد السبعينيات إجبارياً...

–إن كيدكن...

–أوه! العاشرة صباحاً، شكراً على القهوة...

المقطع الثالث عشر

أكثر مخلوق أمسى نشوان جذلان منيرة، أمست مزدهية بما تزيت به نورة من أزياء شفافة ترتدي بعضها لأول وهلة، مزجت بين زي باريس وآخر كندي، لو رأتها سارة لجنت أو جمعت قشها، ليس من عادة نورة أن تبدي زينتها إلا لبعلها، ولكن ليس بهذا الشكل الخرافي الفاتن، أما إذا غادرت بيتها إلى مكان ما داخل البلد أو خارجه، فإنها تجتزئ ببذلات رفيعة، لكنها بذلات عملية رسمية لا هي بالذائلة حتى تمس الأرض مساً، ولا هي بالقصيرة حتى يبدو مليم واحد من فخذيها، نورة نقيض تماماً لسارة التي لا تبدي زينتها وما تملك من عناصر وملامح أنثوية إلا لمن تريد أن توقعه في شركها وتجعله خاتماً في إصبعها.

منيرة لم يبدر إلى ذهنها أي طيف لماذا أقدمت ابنتها على هذه الزينة، وهي التي كانت أول من علم بالترقية الكبيرة المرتقبة... لا شك أن منيرة تكون قد لعنت سميراً الذي لم يحتفل بالأمر، وكأنه حدث صغير، ولم لا تكون قد اتهمته بالغيرة من بنتها بدل أن يغار عليها كسائر الأزواج المستهامين بحب نسائهم؟.

بيد أن نشوة منيرة لن تدوم وقتاً طويلاً، السيدة لطيفة توشك أن تطرق الباب رفقة عزيز الذي أضحى لا يفارقها إلا إذا صاحب نورة إلى الخارج أو قصد الثانوية، "يا لطيف!" ستكدر عليها لطيفة بهجتها بنورة لكن أحداً لن يستطيع أن يُنغص عليها اعتزازها وازدهاءها بما هي فيه من لذة ومتعة ما أحست بهما قبلاً حتى في ليلة زفافها، بعد حين لن يكون لكلامها قِبلة، على الرغم من أن نورة في كل مناسبة تجمع أمها بلطيفة إلا وأوصتها وألحت عليها في التزام قدر من الاحترام والانفتاح والتجاهل لبعض ما قد يطرق سمعها تمجه وتمقته، لكن منيرة

بصراحتها المعهودة تظل منيرة، لا تتوسد كلمة واحدة قبل أن تبوح بها لأي من كان، التحاقها بالعاصمة قبل الاستقلال لم يجعلها نقلة ذلولة لتتحول من طابع ريفي بريء وصريح إلى طابع حضري تسوده الممالقة والمجاملة... الناس ليسوا كلهم على مَرَس واحد...

أما لطيفة فإنها لم تهتم بالأمر، ولم تكن أقل سعادة من منيرة، ونورة مارِيَّةٌ زُمُرّذة تسعى بينهما هادئة وديعة،... إلا سميراً الذي بقدر ما أعجبه ازديان نورة وفتنته بجمالها الساحر الأخاذ، بقدر ما احتار في اختيارها هذا الوقت الذي لا يتماشى والحرم العائلي، إنها أمه وصهرته، أليست أيامات الله كثيرة؟ لكنه لم يجرؤ على عتاب زوجته أدنى عتاب، هو كعادته يقول ويهذي بأشياء كثيرة في ظهرها، ولا يبوح من ذلك بكلمة واحدة إذا قابلها وجهاً لوجه جرأته معها على خلاف علاقته القديمة مع سارة التي تجرأ اليوم تجرؤاً لا تردد فيه على تمزيق البريد الذي اتصل به منها دون أن يفتحه، لكنه عاد بعد ثوان إلى سلة المهملات، والتقط الأجزاء الممزقة كلها ثم أحرقها حتى يتلف كل أثر قديم أو جديد من آثارها، وربما إلى الأبد...

استوى سمير إلى مائدة مستطيلة طويلة مع المستوين وبين صهرته ووالدته، والناس منشغلون في التهام ما حضرته سيدة صناع اليدين، كان يشارك الجميع بجسده، وباله في عالم آخر:

-"ما الذي يضيرني أكثر مما سيضيرني لو استمر في علاقتي المشبوهة بتلك الخرقاء، إذا ما اعترفت لنورة بما جنيت في حقها فيما مضى من الزمن، وهي في هذه الأمسية في أوج فشَقِها ورضائها وانشراحها؟. مبدئياً تخلصت منها ما دمت أني تشجعت وأخذت موقفاً حاسماً لاتهمني العواقب المستقبلية،... هي الوحيدة التي تستطيع أن تخلصني منها، ألا يفلّ الحديد إلا الحديد؟... كنت أبله مغفلاً إذ تأخرت كل هذا التأخر، كنت جباناً خداعاً إذ ظللت طوال عشريتين أبدي لنورة أشياء، وأخفي عنها أشياء أُخَر،... حاولت مراراً وتكراراً، ولكن محاولتي الجبانة كلها كانت تبوء دائماً بفشل ذريع، ومن يدري؟ لعل الوقت لم يكن بعد ملائماً، لأن مدة المناكر والآثام كلما تقادم عهدها انملس أصحابها منها في ظروف أسهل وأفضل، الجبن أحياناً يكون استئساداً، أم ليس "رب فروقةٍ يُدْعى ليثاً"؟ لأكُنْ ألف مرة فَرُوقَة أفضل لي من أن أدلي باعتراف خطير يودي بحاضري ومستقبلي،... كأنكم لا تريدون أن تفهموني، لا أحب أن أفقد نورة،...

ذلك العالم البائس الذي عيرني بشتى النعوت التي يتململ لسماعها الجماد، لماذا لا يتراءى لها، ولو مرة واحدة، ويعترف لها نيابة عني بكل شيء، أفٍّ لتلك الأشباح التي لا تتردد إلا عليّ! لست بحاجة إلى شَيْصان ولا عبقر ولا... رُفع من شانها، تكاد تُضاهى بإلهة الحب والجمال أفروديتا، أُلصقت بي ككاهنة من كاهنات باخوس، لا أخط حرفاً إلا بفضل إلهامها... أهذه حقيقة أم زيف أم دعابة أم لعنة قدرية؟...

–سمير، تشرب القهوة أم الشاي؟

–اللّي كان.

–لا بد أن تختار.

–اسألي...

–أمك لا تشرب في الليل قهوة ولا... وأمي، كما تعرف، مولعة...

–مثل منيرة...

شعر سمير بخجل شديد، وقد نطق باسم حماته،... لكن السيدة أحست برعشة حارة من الارتياح تسري في كامل عروقها، وقد ناداها باسمها أمام لطيفة الشقية بانتظار عودة ابنها ما بقي عرق ينبض في جسمها.

بعد سهرة متأخرة، تعب الجميع، ولم يعد ممكناً لأحد أن يبارح الدار، ...استأثرت لطيفة بحفيدها عزيز، بينما نامت منيرة في غرفة أخرى مع يوسف، ليس في هذه الشقة إلا ثلاث غرف،...

تضمخت نورة بكل أنواع الطيب، وخففت ملابسها الذائلة،... بدأت تعبث بشعرها،... تسرحه بأناملها، ... ثم تناولت جهاز تحكم عن بعد، وشرعت تنتقي برامج تلفزية أجنبية،... كأنها في بداية سهرتها أو تريد أن تسهر من جديد،... سمير فهمها فهماً خاطئاً، لكن لنورة نية أخرى لا تنبئ تماماً عنها زينتها،... طافت بعقل وفكر سمير أطياف من الوساوس الطائشة الحمقاء جال وصال بخياله الواسع بعيداً بعيداً، هنا وهناك،... من تلمسان إلى باريس، إلى بروكسيل، إلى كندا،... إلى... لم يفهم إطلاقاً ماذا تريد امرأة مبدية كل عنصر فيها من عناصر جسدها، وهي منسرحة أمام رجل على سرير واحد؟...

لاحظت نورة أن النعاس شرع يستولي على يقظة سمير وحسه، خشيت أن

الفرصة تفوتها، ولم تنفذ وعدها الذي لمحت به إلى سي البشير، خاصة بعد موافقته بمباركة من فاطمة، بعرض الفيلم الذي رطبته خلال العملية الجراحية الدقيقة.. على ألا تعرضه إلا على الخاصة من الأطباء العالميين لاحقاً،... ثم تراءى لها أن تدعه يسيح في هجوده هادئاً، تعلمت كثيراً من سي البشير، تنتظر أن تزوره أرواح العالم الآخر، هو الآن ضيف نازل مرحب به،... أعدت شريطاً لتسجيل بعض الاعترافات التي يراها خطيرة، وهو مُجَمِّع لكامل قواه العقلية،... لو اعترف لبعض خلانه لكان اليوم مرتاحاً، ولما تحول إلى شخصية متألمة وزوج غامض،...

تناومت نورة مجاراة لسمير، بدأت تنتظر وتنتظر الساعة الحاسمة، لكن زوجها جعل يغط غطيطاً خفيفاً مما بدا لها أن هذه الهيئة لا تدل على السفر البعيد إلى العالم الآخر، فالغاط لا ينبس بكلمة،... نورة لم تذق طعم نوم عميق وهادئ منذ بضعة أيام، وقضت ليلتها الماضية ليلة بيضاء، فهل بإمكانها أن ...؟.

هجم الصباح بنبراسه المنير على جُنْح الليل بظلامه الدامس، ونورة لا تذكر كيف أغار النوم على قلبها، فأزال قوة عقلها، وبتر وعيها،... إلا وهي تنهض مثاقلة شبه كسولة،... تجاهلت وكأن شيئاً لم يكن،... كلتا العجوزين توهمت أن نورة قضت ليلة زفاف ثانية.

أخذت ترشف قهوتها سارحة بعيداً بخيالها المجنح في الوسيلة التي ترغم بها سميراً على الاعتراف لها، إذا كان تحليل سي البشير صائباً،... كانت تحسب أن سميراً سيذبل ذبولاً ويَطيط طُيُوطاً في فراشها الذي نضحته على غير عادتها بكل أنواع الطيب والمسك،... ربما فاتها أن سميراً هو الآخر، حين امتنعت على رواده إياها، بادر إلى ذهنه فوراً أن زوجه محتفلة وفرحة بترقيتها السياسية.

يبدو أن نورة اقتنعت الآن ألا تعود لاحقاً إلى مثل هذه التجارب التي لا تزيد الهوة بينها وبين زوجها إلا عمقاً، وعلى العكس من ذلك بدأت تحلق بذهنها في كل من تربطهم صلة ود وصداقة بزوجها، ليتكفل سي البشير بالباقي.

وبينما هي لا تزال ترشف قهوتها منهمكة بتفكيرها، منشغلة البال بهذا أو ذاك، إذا ابنها عزيز يضع أمامها على الطاولة كومة من الرسائل التي لم تعد تحفل بها، بما في ذلك تلك التي جعلت تستقبلها مباشرة على البريد الإلكتروني،... تكتفي بفرز ما تعتقد أنه جاد منها، ولكنها كثيراً ما كانت تفتح

رسالة لا تجد في داخلها غير عبارات الإعجاب والتقدير، وأحياناً المغازلة ووصف ملامح من جسدها،... بدأت ترفع رسالة وتحط أخرى، وإذا برسالة تلفت انتباهها أكثر من غيرها،... شرعت تفتحها، وارتعاشات غريبة في كل جانحة من جوانحها، ثم ثلجت أعصابها، ونهضت من على مقعدها متجهة صوب غرفة نومها:

"عزيزتي نورة، لا أحييك، لأنك لا تريدين مني هذه التحية، ولكني أتوسل إليك بجاه روح والدك الطاهر ألا تمزقي أو تحرقي هذه الرسالة إلا بعد قراءتها.

حين بلغت ثلاث أو أربع سنين، لا أدري، وجدت نفسي أؤمَر وأُنْهى وأُربَى من أوانس عذارى متبتلات،... وإذا بسيدة تزورني وتحتضنني، فقيل لي: "هذه أمك!" بعدما بلغت خمس أو ست سنوات، لا أعقل بالضبط، أُعيدَ بي إلى شقة هنا في ليون، وبعد لحظات شاهدت رجلاً يفوق "أمي" بمتر في قامته، وبأشبار في عرضه، وبكيلوغرامات كثيرة في وزنه، فقيل لي: "هذا أبوك" لا أنكر اليوم أو غداً بأنهما تعهداني وعلماني إلى أن وصلت الدراسات العليا، أنت تعرفين اختصاصي، رافقت يوماً "أمي" إلى حمام "عَرْبي"، لما خرجت وانبطحت لأستريح من نبضات قلبي السريعة، تقدمت مني "أمي": "أعقل عليها مْليحْ، هذه هي حَماتك!" وما كدت أتجاوز عتبة الدار حتى لمحت شخصاً يكبرني بضعف سني، فقيل لي: "هذا هو زوجك!" قبل عشريتين انتاب هذه العائلة شعور مفرط بحب الوطن،... حللت أول ما حللت بهذه المدينة الجميلة، وأنا غريبة عنها كل الغرابة، لم أحتمل طبائع ناسها، في المحلات والإدارات، والشوارع،... خطاب وداخل الفيلات خطاب آخر، لم أجد أحداً يساعدني ويأخذ بيدي غير سمير، ظلت علاقاتنا لمدة سنتين علاقات عفيفة طاهرة، لكن ألسنة الناس تقولت علينا تخرصات ما لبثت أن تحولت إلى قصة غرامية واقعية،... يبدو أن سميراً كان يمر ببعض فترات فراغ عاطفية بين كل فينة وأخرى، ربما كنت منشغلة بأشياء خطيرة في حياتك العلمية والمهنية لا ترحم النصف الآخر من حياتك الخاصة، مما جعلنا نتجاوب بسرعة إلى بعضنا بعضاً.

أما زلت تتذكرين يوم كنا نتلاقى مرة في السنة أو في السنتين، ولم تكن الواحدة منا لا تزيد إلا نفوراً وعدواناً ضمنيين من صاحبتها الأخرى كأن بيننا حساباً قبلياً على دين الجاهلية؟ ما الفائدة من إخفائك بعد كل هذه السنين سراً تحول شيئاً فشيئاً إلى ذَحْل؟ كنت أكاد أتميز من الغيظ كلما لمحتك،... أتدرين

لماذا؟ لأنك أحسن مني جمالاً، وفي الوقت ذاته كنت أتعجب من قرب سمير مني وتعلقه بي، ففهمت أن الخطيئة خطيئتك.

دخلت تلك المدينة التي ستبقى ذكرياتها ما مرّ منها وما حلا ماثلة في ذاكرتي، وأنا فتاة ساذجة عفيفة لا أكاد أملك أي شيء، فخرجت منها، وأنا امرأة جسور،... في متناولي كل شيء، لكن بأي ثمن؟ في بداية عهدي بتلك المدينة كانت علاقتي المهنية والعلمية والاجتماعية لا تكاد تتجاوز حياً من أحيائها، ويوماً بعد يوم توسعت علاقتي لتشمل المدن كلها، والبلدان المتوسطية والمغاربية.

جعل أعيان المدينة وتجارها الأثرياء يكلفونني لقضاء مآرب معقدة داخل المدينة نفسها وبعيداً عنها، كان الواحد منهم يسلمني ملفه مع تذكرة الطائرة في الدرجة الأولى ودليل حجز الغرفة في أفخم فندق عاصمي ذي خمسة نجوم، كانوا كراماً معي في الباقي، أم ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان؟. وكنت إذا طلبت منهم رفيقة لا يترددون في تخييري لآخذ من فتياتهم أو نسائهم من أرى فيها مستوى أرفع، ورفقة أنجع أعترف بأنهم كانوا أجواداً معي في كل شيء، مما كان يشجعني على المضي قدماً في الأعمال، لكن بأي ثمن؟.

كان سمير يعرف جوانب سطحية، ولكنه لا يعرف كل التفاصيل، ما أكثر ما كان يتشاجر معي كلما أشتم رائحة من تحركاتي المشبوهة أو سلوكاتي الغامضة، كنت أحاول جاهدة ألا أجعله يعاني من أجلي، ولكن حين يتعلق الأمر بامرأة هو غارق حتى أذنيه في أحلامها، فإنه فظ غليظ لا يرحم ولا يعذر، حبه صادق لكنه لا يخلو من سلوك بدوي جلف، كأنه تحضر منذ أسبوع،... بعض الناس يتبادلون نساءهم ولا يتحرجون، وهو يغار على مجرد عشيقة له! ولو خلقت لرجل واحد، فلماذا كان هو ثاني اثنين معي؟ لكن غيرته الحمقاء كانت لا تزيدني إلا جنوناً في حبه وتعلقاً به، كنت أنا الأخرى أراجع حساباتي خوفاً من أن أخسره فتستأثر به امرأة لعوب أخرى أو على الأقل تستبدين أنت به وحدك، وهذا ما كان يجعلني أتنازل له أحياناً مكرهة، حاولت أن أشركه معي في بعض النشاطات والأعمال المربحة حتى يكون قربه مني أكثر مشروعية، ولكنه،... حتى الآن، لا أعرف لماذا؟

جاءت العشرية الحمراء بدمارها وخرابها ودين جديد، فأيقنت أني لا محالة هالكة،... ولكني ظللت أتتبع أخبارك التي بقيت سنوات لا تسرني،... وعاماً بعد عام تعودت عليها، وفي النهاية أدركت أنك تخطين خطوات عملاقة صوب طريق

المجد، منذ أيام فقط شاهدتك في إحدى التلفزات الأوروبية تستفسرين في ملفات سياسية واجتماعية لا يستفسر فيها عادة إلا المفكرون ومحترفو السياسة الكبار،... سبحان الله! النساء تتقدم بهن السن إلى الأمام، وأنت يتأخر بك العمر إلى الوراء! مازلت أجمل مما كنت أتصور اللي فات مات، حسدتك حسداً أعمى، كما لو كنت لي ضرة فعلاً.

عزيزتي نورة، صدقي أو لا تصدقي،.. لقد تبت إلى الله توبة نصوحاً ترددت على إمام يدعى سي علي، واعترفت له بكبائري، فأجابني، "دون الدخول في التفاصيل، يا سيدتي، إن كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون". وأسمعني آيات قرآنية، وأحاديث نبوية وأبياتاً شعرية لبعض الشعراء الماجنين يعلنون فيها توبتهم،... فطمعت في رحمة الله الواسعة،... كنت أخبرت سميراً قبلك بأيام، ولكنه لا يجرؤ،... لأجل هذا،...

عزيزتي نورة، الآن أجرؤ على تحية قلبك الطيب، وإلى لقاءات أهنأ وأسعد، حتى ذلك الحين حفظتك العناية الربانية".

الآثمة التائبة سارة

←←

المقطع الرابع عشر

خلعت نورة مناماتها الليلية البيضاء، وبذَلَتْ جُبَّةً متداخلة الألوان، ولوت على جيدها ذي البشرة الحمراء منديلاً حريرياً تتزين به لأول وهلة، امتطت سيارتها المتقادمة وذهبت في اتجاه المستشفى الجامعي، بعد ما ضبطت أمور الوجبة الغذائية مع الخادمة التي لا تعمل في بيتها إلا ساعات نهارية محدودة.

اتجهت أول ما اتجهت صوب فاطمة لفحصها ومتابعة نتائج عمليتها، انحنت على الصبيّ فقبلته قبلات حنونة، ثم رفعته وضمته إلى صدرها: "لو كان في صدري حليب لآخيته مع يوسف وعزيز"،... تأثرت فاطمة التي فاضت عيناها بعبرات لسماع كلامها: "والله، ما رأيت ولا عرفت طبيبةً ولا سيدةً أكثر منك حناناً، وأنت السيدة التي تملك كل ملامح المرأة الجميلة،... حكى لي كثيراً عنك بشير لكن ما رأيت في لحظات قصار تحتاج حكاياته إلى ساعات وأيامات طوال،... صانك الرب، صانك الرب".

استقبلتها طالباتها في مكتبها هشوشات بشوشات، وهن يكدن يطرن فرحاً وفخراً بنجاح عملية أمس العسيرة التي لم يسبق لواحدة منهن أن عاينت مثلها، بعض منهن اعتبرتها ثواباً من الله في الدنيا قبل الآخرة للسي البشير الذي يعالج شرائح اجتماعية ممقوتة ومنبوذة من مجتمع مدني متحضر، والبعض الآخر منهن رأين أن نجاح تلك العملية التي لم يسبق لها نظير، ربما في العالم كله، تحدٍ من نورة لكل النظريات الطبية التقليدية التي قد تسترخص الحياة الإنسانية وتصدر أحكاماً جاهزةً في الموسوعات الطبية.

لم ترد نورة أن تصرف طالباتها المرموقات عما هن فيه من نشوة النصر،...

وأكثر من ذلك جاءتها فكرة على حين غِرَّة:

–تعالين يا بنات أمتعكن بلغز، من حلته منكن أعفيتها من مداومة ليلية،... ما هو اسم بلد أوله فاء وآخره ألف؟ وما هو اسم امرأة بدايته سين ونهايته تاء مربوطة؟

–فأجبنها بلهجة ساخرة لا تخلو من دلال: مسكينة هي التاء! لماذا ربطوها؟ فإلى متى تظل العرائس يبتن بليالي حُرَّةٍ؟ نريدها ليالي شيْباء،... حرام عليهم حتى سي علي الذي حكيت لنا عنه...

–ليس هذا هو الجواب يا بنات، أجِّلن كل شيء إلى موعده، لكن حذار أن تتزوجن كلكن في ليلة واحدة، ضَعْن خطابكن من الآن في الصورة، وإلا فإني لن...

–ليتنا بعد أن نلج ما يسمونه قفص الزوجية أن نبقى نتمتع بمسحات مما تتمتعين به من آيات الرونق والجمال،...

–أنتن أيضاً رائعات، أنصحكن ألا تَبُحْنَ بهذا التمني لواحد من خطابكن،... قالت هذا وهي تبتسم،... هل أوجدتن الجواب أم لا تحب الواحدة منكن أن تعفى،....؟

كل واحدة انزوت عن صاحبتها، وبينما هن منغمسات في التفكير لفك لغز نورة المحير، وهي على كرسيها وراء مكتبها ترقبهن شبه غير مبالية، دخل المصحة شغال حامل ستة قرون تفيض قِشْدة،... تناظرن إلى بعضهن بعضاً، ثم التفتن إلى أستاذتهن عيناً واحدةً، وبصوت أغن، تصحبه ضحكات من العمق: كاخ، كاخ، كاخ،... وقد طفقن يلحَسْن ويمتصصن رغوة القشدة بمقدم شفاههن وألسنهن،... "هذا، والله يا أستاذة، لأفضل لنا تكريماً من التجفيف وغسل أواني المطبخ..."، لم تتمالك نورة نفسها وبدأت تشاركهن في ضحكهن الحاد إلى أن سحت عيناها المقوستان اللتان تتوسطهما زرقة خافتة جذابة بكرويات صغيرة من الدموع وقد ارتطمت بحُرّ وجهها الوضاء الجميل.

انتهى

ꦏꦏ

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

دموع وشموع : رواية/ عبد الجليل مرتاض– دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 – 82 ص؛ 24سم.

1– 813.03 م ر ت د　　2– 813.009615 م ر ت د

3– العنوان　　4– مرتاض

ع– 2001/11/2261　　**مكتبة الأسد**

❑❑